كانكان العوّام الذي مات مرّتين

مع مقدمة بقلم روجيه باستيد

جورج امادو جورج امادو جورج امادو



Jorge Amado

LES DEUX MORTS DE QUINQUIN LA FLOTTE

سلسلة الأدب العالمي سلسلة الأدب العالمي سلسلة الأدب العالمي



كانكان العوّام الذي مات مرّتين

مع مقدمة بقلم روجيه باستيد

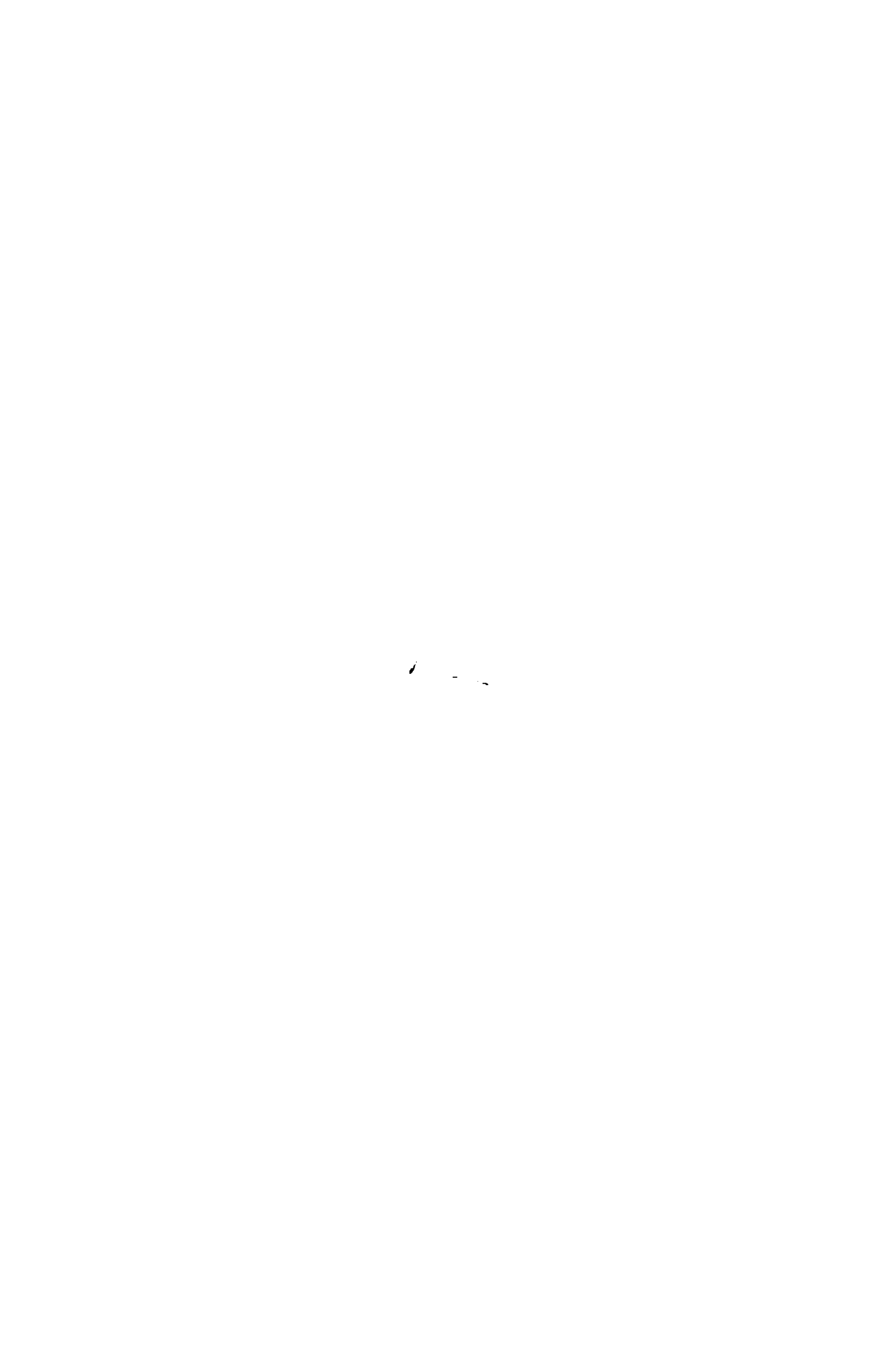
جورج امادو جورج امادو جورج امادو

Jorge Amado

LES DEUX MORTS DE QUINQUIN LA FLOTTE

سلسلة الأدب العالمي سلسلة الأدب العالمي سلسلة الأدب العالمي

كانكان العوّام
الذي مات مرّتين



جورج أمادو

كانكان العوّام الذي مات مرّتين

مَع مُقدّمَة بقَلم رُوجيّه بَاسْتيد

ترجمة : محمد عيتاني

دار الفارابي - بيروت
١٩٧٩

هذه ترجمة كتاب :

Les deux Morts
de
Quinquin la Flot

دار الفارابي — ص. ب. ٣١٨١
بـيروت

الطبعة الاولى — تشرين الثاني ١٩٧٩

مُقَدّمَة بقَلم رُوجيّه بَاسْتيد

الطريـــــق الـــى جـــورج امـــادو

□ بقي الادب البرازيلي ، حتى الحرب العالمية الاولى، مثبتا انظاره على أوروبا ، التي كانت بورجوازيتها تتبنى أنمـــاط الادب وازياءه • وكان الادب البرازيلي أدبا مستوردا • وهذا لا يعني بالتأكيد ، ان تغييرات معينة لم تكن تحدث او تتدخل ، لدى انتقال المدارس من جانب من المحيط الاطلسي الى جــانب آخر ، مع خضوع الرومانسية والطبيعية والبارناس والرمزية لتأثير المناخ الاجتماعي ، بل الكرني، الخاص بالبرازيل• لكن هذه التغيرات كانت تحدث ، بصورة عامة ، مـــع استثناءات نادرة كحالة / جوزيه ألينكار / ، دون معرفة الكتاب، وبصورة لا واعية • ولم تع البلاد اصالتها الجمالية الا منذ عام ١٩٢٢، وباديء بدء في ساو باولو ، مع / الحركة العصرية / ، حيث سيصنع الفن لنفسه، بمثابة غائية جوهرية، البحث الاستبطاني عن الروح البرازيلية ، في ما يمكن ان يكون لديها من شــــيء فريد في العالم ، تحت التأثير المزدوج ، الجنسي ، من المناطق الاستوائية ، والثقافي ، من امتزاج الاجناس والحضارات ، الهندية ، والافريقية ، والبرتغالية ، في كل ممتع النكهة • انها خمرة لم يسبق لها مثيل من شأنها ان تحرق احشاءك •

ان الشمال الشرقي لن يتبع هذه الحركـــة الا فيما بعد · وسيبقى في انتظار / جيلبرتو فرايريه / الذي يؤسس ـ جزئيـا بمثابة تتمة لحركة ساو باولو العصرية ، وجزئيا باتجاهـه ضدها للحركة / «اقليم وتقاليد» / ، تتمة، كما قلنا، / للحركة العصرية / ، لان الامر ما زال يتعلق دائما ، ان لم يكن اكثر ، بتجذير الادب في أرض البلاد ، في منظرهـا الطبيعي ، ارض ماسابي السوداء هذه ، التي يأكلها القصب ، ارض السيرتاو التي يفسخها الجفاف ـ ولكن هذه الحركة ، من جهة اخرى ، كانت معارضة للحركة العصرية / ، ذلك ان هـــذه قد ظلت ملتبسة تأكيدها الثوري ، بما انها كانت تقوم بامرار البحث عن الاصالة البرازيلية عبر تأثيرات اجنبية أيضا /لمارينيتي / و / بليز سندرار / ، والنزعـــة التعبيرية الالمانية · وفي هـــذا التيار الثاني للادب البرازيلي ، التيار المسمى اقليميـا (أو : منطقيا ، نسبة الى منطقة) يبرز / جورج امادو / · لكن ذلك ، كما سنرى ، كان لاجل تفسيخ هذا التيـار ، بدوره ، او جعله يرتمي في اتجاه لم يسبق له مثيل ابدا ·

ذلك لان النزعة الاقليمية كانت في وقت معا تيارا جديـــدا وتيارا قديما · انها تيار جديد ، بارادة / جيلبرتو فرايريه / ، الذي كان يعطيه بمثابة مهمة سياسية بصورة ما : اعـــادة الارتباط بالتقاليد الابوية (البطريركية)، تقاليد الود القلبي بين الاجناس الثلاثة المكونة للبرازيل ، على ان التصنيع الوليـــد ورأسمالية المصنع الزراعية (ضد المطحنة القديمة) كانت تفتح ثغرة في هذه المهمة ، مؤلفة من توترات ومنازعات ـ وبالتالي اعادة اصعاد العصر البرازيلي الراهن الى الينابيع واصالتها الثقافية · لكنه في الوقت نفسه تيار قديم ، ذلـــك لان الادب الاقليمي (او المنطقي) هو سابق لحركـــة /فرايريه / ، ونحن نجده في داخل المدرسة الرومانسية ، ثم المدرسة الطبيعية ، بل لقد ازدهر ـ قبل النزعة العصرية ـ على الاخص في ولايـــة ميناس، مع / ا· ارينوس / وبالنسبة لداخل ولاية ساو باولو،

مع /مونتيرو لوباتو/ في مدرسة يمكن تسميتها سيرتانيجا(١) التي كانت تهدف الى التغني بـ «الكابوكل (٢)» ضد «متمدن» الساحل . وهذا يؤدي بمقدار ما ، الى ان الروايات الاولى / لجوزيه لويس دو روغو / ، و / جورج أمادو / ، اللذين هما الكاتبان الكبيران للمدرسة الاقليمية الجديدة للشمال الشرقي ، قد قامت فقط بمواصلة المدرسة الطبيعية القديمة لما قبل النزعة العصرية ، التي تريد نفسها ، بعد أميل زولا ، و «روايته التجريبية» تصويرا أمنيا لوسط اجتماعي (سوسيولوجي) معين ، و «شريحة من الحياة» ، ووثيقة تساوي في علميتها ودقتها ، ان لم تكن اكثر ، تلك الشريحة التي يمكن أن يعطيها اختصاصي في العلوم الاجتماعية المهتم بنفس المسائل . أفلم يقل / جورج أمادو / في مقدمة لاحد كتبه الاولى / «كاكاو» / ، انه أراد أن يعطي «وثيقة انطباعية» حول وضع بسطاء الناس في منطقة استثمار الكاكاو مع «الحد الادنى من الادب» ، مسجلاً بذلك صورة جيدة استمرارية مشروعة مع مشروع / جواو ريبيرو / ، الذي كان رئيسا للنزعة الطبيعية ، ومعاصريه ، في نهاية عهد الملكية – وبداية الجمهورية .

انها استمرارية ولا شك – لكنها اذا سمح لي بهذا التعبير المتناقض ظاهريا ، استمرارية منقطعة . ذلك لان النزعة الطبيعية القديمة ، كما لاحظ أفطن نقاد ومؤرخي الادب البرازيلي ، / انطونيو كانديدو / ، هي لاجل طبقة اجتماعية معينة ، هي طبقة البورجوازية الثقافية ، وان الطبيعية الجديدة التي أخذت تتكون حول / جيلبرتو فرايريه / هي «نزعة طبقة» . ان أثنين من أمجد ممثليها

---

(١) أي : حين تؤخذ مشاهدها الطبيعية وشخصياتها من مناطق البرازيل المتخلفة ، / السيرتاو / .

(٢) ان «الكابوكل» ، وهو في القديم : الهندي المتمدن ، ثم الخلاسي المولود لابوين أبيض وزنجية ، أو بالعكس ، قد انتهى بان يدل على الفلاح الفقير في داخل البرازيل ، مهما كان منشأه الاثني .

(وسنرى بعد لحظة المكان الخاص تماما لجورج أمادو)/جوزيه لينس دو ريغو / و / غراسيليانو راموس / ، هما في الواقع، ابنان أو سليلان لملاكين عقاريين كبار مفلسين ، وان اعمالهما ليست سوى التعبير عن طبقة في حالة انهيار، وهي طبقة سادة المطاحن أو زراعي قصب السكر ـ الذين كانـــوا طوال قرون سادة البرازيل اقتصاديا وسياسيا ، والذين اضطروا لاخلاء المكان الان امام ارستقراطية أخرى، مؤسسة على المال، وليس على امتلاك الارض والعبيد · ان النزعـــة الطبيعية الجديدة تصور بصورة رائعة الانهيار ، المتزايد السرعة اكثـر فأكثر ، لهؤلاء الابناء من الاشراف المنهارين ، المتشبثين منـــذ اليوم بأرض عقيمة ، ومبان كبيرة طارت منها الموسيقى (مع الاولاد الذين ذهبوا ليذووا في المدينة، في مكاتب متواضعة، في خدمة السادة الجدد)، والمتمسكين بمطاحنهم «ذات النيران المنطفئة»، التي تتساقط جدرانها اطلالا تحت ضغط النباتـات الاستوائية التي تأخذ ثأرها من البشر · ومؤكد أن الشعب يظهر في هذه الروايات : الاقنان ، وهم عبيد قدامـى معتوقون ، لكنهم ظلوا متعلقين بسادتهم ، وقطاع طرق ورجـــال عصابات يرتادون العالم ، وانبياء ولدوا من بؤس الشـــعب ، والذين يستدعون الهزات الاجتماعية البركانية ··· لكن هؤلاء الاقنان ، هؤلاء العبيد الاحرار ، وقطاع الطرق هؤلاء أو الانبيـاء ، لا يظهرون الا بارتباط مع الاشراف المنهارين، مأخوذين في الشبكات التي ظلت حية عبر جميع الانقلابات الاجتماعية ، التي تقيد البيض، والخلاسيين والزنوج في حركة الانهيار نفسـها ، ابتداء من انهيار الابيض ·

وهذا معناه أن / الشعب / ـ حتى لو كان يتدخل في ذلك ، واذا كان يلعب في ذلك دورا ، مهما في بعض الاحيـان ـ ليس لديه هنا استقلال ذاتي · والشيء المسيطر ، هو وضع اجتماعي (سوسيولوجي) ، ومنظومة للعلاقات ما بين البشر ، للسيطرة، وهي ودية من جهة أخرى، ملتقطة في أبان الازمة ـ وليس تدفق الشعب بمعناه المحدد في الرواية الطبيعية · ولذلـك تكلمنا لا

عن الانفصام ، بل عن استمرارية منقطعة • والحال ، فان اصالة / جورج أمادو / ، هي بالضبط انه حطم هذا القالب • وكان باستطاعته بصورة جيدة جدا أن يبقى مسجونا فيه ، ذلك لانه ولد ، هو أيضا ، في أسرة من هذه الارستقراطية القديمة المنهارة • اذن فهو لا يتميز بأصوله الاجتماعية عن كاتب / كجوزيه لينس دو ريغو / أو / غراسليانو راموس / • لكنه حامل لموهبة من التعاطف بحيث سيتجسد شعبا ، وان الشعب سيستطيع ، لاول مرة ، أن يعبر عن نفسه في الادب البرازيلي، مع شخصيته الخاصة ، بكل عفويته الخلاقة للثقافة، بحيث أن الرواية الطبيعية ستغير طابعها كليا لتكف عن أن تكون رواية لتصبح / ملحمة / • تلك هي ، في رايي ، الثورة التي جاء بها / جورج أمادو / ، وهذا ما لم يستطع أن يراه نقاده ، اولئك الذين يأخذون عليه ، مثلا ، نقص التحليل النفسي في رواياته (وسنعود فيما بعد الى هذين الموضوعين) •

ونستعيد تعابير / انطونيو كانديدو / فنقول : أنه اذا كانت النزعة الطبيعية القديمة هي نزعة «لاجل» طبقة ، فان النزعة الطبيعية الجديدة هي نزعة «طبقة»، وما زال الامر يتعلق بطبقة المثقفين البورجوازيين ـ أما نزعة جورج امادو الطبيعية فهي نزعة «البروليتاريا الوليدة ، التي وجدت في كاتبنا ، في وقت معا ، تعبيرا عنها وتجسدا لها ، بمعجزة سيكون علينا أن نحللها في موضع تال •

لقد حاولنا، في السطور السابقة ، أن نضع /جورج أمادو/ في مجمل الادب البرازيلي المعاصر، وبصورة أخص، في الادب البرازيلي المعاصر ، لكي نبرز اصالته • وسوف نتبعه الان على طول تطوره الادبي، الذي سيقودنا من درامة/«بلاد الكرنفال»/، كتابه الاول ، الى الملحمة الهزلية لرواياته الاخيرة ، ولكن تبعا لخطوط كثيرا ما تكون ملتوية ، وكأنما كان كل كسل المناطق الاستوائية يريد أن يلعب عنده مع بؤس الشعب ، لكي يبلسم الملامح المؤلمة •

أمادو في خطواته الاولى :
ارتباط بالشعب وتراثه

□ ولد / جورج أمادو / عام ١٩١٢ في ايتابونا، في مزرعة كاكاو بجوار فيراداس ، في جنوب ولاية باهيا ٠ وقد قام ولا شك وهو طفل صغير - مثل جميع اولاد ارباب العمل - باللهو مع الزنوج الصغار ، والاستماع الى أغاني «المعمرين» و «المياومين» الزراعيين ، بعد انهاء العمل ، على نغمة القيثارة الشاكية ، وهم يتغنون بجهد الرجال ، وحب النساء ، وشجاعة قطاع الطرق ، مزيلي المظالم، في السيرتاو٠ انهم رجال الشعب هؤلاء ، الزنوج ، والخلاسيون ، و «الكابراس» الذين كانوا الاساتذة الحقيقيين / لجورج أمادو / ٠ ذلك لانه لن يستطيع في التالي ان يتحمل سواهم٠ وقد ارسل في الواقع الى مدرسة دينية ، لكنه لم يستطع أن يعيش في الحرمان المزدوج ، من حرية الريف مسقط رأسه وفي انفصامه عن الشعب ٠ وفي سن الثالثة عشرة، فر هاربا ٠ وفي سن الخامسة عشرة وجد عملا في جريدة ٠ وهنا يوجد ، كما نعتقد ، واقعة مهمة لاجل فهم / جورج أمادو / : انه لم يتلق بصورة طويلة كافية وقويةتأثير التربية المدرسية ، الدينية والانسانية ، البورجوازية ، لكي ينقطع عن الطبيعة والشعب ، وقد استطاع - بمقاومته ضد التعليم الذي كان يتلقاه وبدخوله ، وهو بعد في ميعة الصبا ، في حياة العمل - ان يحتفظ دون مس بعفوية عبقريته، وبصورة خاصة ، بما تعلمه من معلميه الفلاحين : موهبة رواية قصة ، والموهبة بروايتها مع طبعها باطار ايقاعي،وهو ايقاع الموسيقى الشعبية ٠

وحين دخل / جورج أمادو / الى الصحافة ، كان ذلك بالضبط البرهة التي كانت فيها / الحركة العصرية / ، التي بدأت في ساو باولو وريو دي جانيرو ، تنتشر في جميع ارجاء البرازيل الباقية ، ووصلت ، فيما وصلت اليه ، الى شبان

باهيا • وانضم / جورج أمادو / حينئذ الى الحركة وشكل مع / سوزيجينيس كوستا / و / بنهيرو فييغاس / و / اديسون كارنيرو / (الذي سيصبح ، في التالي ، احد أكبر الفولكلوريين البرازيليين ، وواحد من افضل العارفين بعالم الكاندونبليه«٣») ثم / الفيس ريبيرو / ، و / كلوفيس اموران / جماعة صغيرة تهتم ، مثل عصريي جنوب البرازيل ، بالدفـــاع عن الاشياء البرازيلية (ضد الادب المصدر) وعن اللغة البرازيلية (ضد نسخ اللغة البرتغالية ، التي كانوا يعتبرونها لغة اجنبية ، وليســت لغة وطنية) • الا ان النزعة العصرية ـ في الشمال الشرقي ، الذي كان قــــد بقي أبويا (بطريركيا) ، ومأهـــــولا بزنوج وخلاسيين أكثر منه ببيض انقياء ، وعلى الاخص الابعد عن حركات الهجرة، التي كانت تمتص في جنوب البرازيل الايطاليين والالمان والاوروبيين الاخرين ـ لم يكن بوسعها ان تبقـــــى «عصرية النزعة»، وقد توجب عليها ان تصبح «تقليدية» النزعة، وكان لزاما عليها أن تؤدي لا الى خلق اشكال جديدة ، الشعر الحر ، والصنع الاصطناعي للغة توفيقيـة ، أو للادب المرخم ، بل الى اعادة احياء الفولكلور ونفحه بنشـــاط حيوي كبير ، (الذي كان دائما هنا قوي الحيوية) ، والتقاليد الافريقية ،(التي كانت تزدهر ، في مدينة باهيا ، « باهيا جميع القديسين وجميع الخطايا» في الف ابداع ذات نكهة ممتعة) ولغة توفيقية أيضا ، وهي في وقت معا ، برتغالية ، ومحلية ، وافريقية ، في تركيبها اللغوي كما في مفرداتها ، ولكن لم يعد الامــر يتعلق بخلقها ، (كما كان يفعل / ماريو دي اندرادي / في الجنوب ، في كتابه «ماكونيما») بما ان هذه اللغة اصبحت موجودة فعلا ، وانــه كان يكفي بالتالي جعلها تجتاز عتبة الادب لكي تصبح لغــــة السفايروس (٤) ، والحمالين ، وبائعات الفطائر ، والاكاراجيه

---

(٣) الكاندونبل : دين افريقي ما زال عائشا في البرازيل، وفيه بعض التاثيرات من الدين الكاثوليكي •

(٤) السفايروس : اولئك الذين يقودون السفن الذاهبة من مرفأ الى آخر حاملة المنتجات الزراعية أو الحرفية لشمال شرق البرازيل •

او قطع الدجـــــاج باشيم ـ شيم (٥) ، ومتشردي المرافيء ، والسيدات ذوات الفضيلة الصغيرة ، لكي تصبح لغـــة هؤلاء لغة شبابنا الكتاب العصريي النزعة ·

لكن / باهيا / كان لديها تقاليد اخرى ايضا ، وهي تقاليد الثورة · ان شاعرها الاكبر ، / كاسترو ألفيس / قد ناضـــل ضد العبودية ، ومجد الزنجي ضد الابيض ، ودعا رجال جيله الى تحطيم قيود السجناء وغسل الراية البرازيلية من اللطخة المشينة التي كان يشكلها استعباد جنس لاخــــر · ان / روي باربوزا / أكبر برلماني في البرازيل ، قد وضع دائما بلاغتـه الملتهبة في خدمة العدالة الاجتمـاعية والليبرالية السياسية · ومؤكد ان هذا تقليد خطر من وجهة النظر الادبية ، ذلك لانـــــه يكفي أن تنضب قليلا النفحة الثورية لحظة ، لكي يصبح الشعر أو البلاغة البرلمانية مجرد كلام · ان اغراء البلاغة قد وجـــد ايضا لفترة لدى / جورج أمادو / ، واذا كــــــان قد تخطاها نهائيا ـ وتخطاها بتقليد اخر هو من باهيا على كل حال ، رآه جيدا / جيلبرتو فرايريه / حين تحــدث عن «المولیكاجيم (٦) البهياوي والذي سنسميه بصورة أبسط : السخرية · لكننا في الوقت الحاضر لا نريد الالحاح على الخطر من وجهة نظرادبية للتقاليد الثورية · وما يهمنا ، هو أن أدب باهيـــــا ليس ادبا مجانيا ، أدب الفن للفن ، بل هو أدب ملتزم ، جدلي ، ومشارك·

ومنذ ذلك الحين فان مدرسة باهيا ، الفتية ، والعصريـــة والتقليدية في وقت معا ، ستنقسم الى قسمين · تيـار يحملها نحو أدب واقعي جديد (نيوريـاليست) وهو في الاساس اجتماعي النزعة (سوسيولوجيك) ، يسعى لان يصف بالصورة الادق ، الواقع المحيط · ومن جهة أخرى ، تيـار سياسي ، ينطلق من

---

(٥) انواع من المآكل المتبلة بالزيت والبصل الخ ·

(٦) المولیكاجيم : تعبير تصعب ترجمته الى العربية · أن المولیك هو الغلام المشاكس ، الخبيث ، الضاحك · ولعل تعبير «الزعرنة» يوحـــي بعض الشيء بما تعنيه المولیكاجيم ·

الواقعية الجديدة ، لكنه لم يعد يكتفي بتصوير الواقع ، فهو مصمم بالعكس على تغييره ، وتغييره باسم ايديولوجية اشتراكية ، وهو يحول بذلك نهائيا الرواية الى رسالة للعمل الثوري · وسينتسب / جورج أمادو / الى هذا التيار ·

في سن التاسعة عشرة ، نشر روايته الاولى وهي / « بلاد الكرنفال » / (١٩٣٢) التي هي صرخته التمردية الأولى · ان البرازيل معروفة بأنها بلاد الكرنفالات ، الصاخبة ، المبتهجة ، لكن هذا الابتهاج لا ينبغي ان يجعلنا ننسى انه ليس سوى تعويض ، وانتزاع عابر ، ويا للاسف ، من الواقع البرازيلي الحقيقي ، الذي هو واقع شعب بائس ، ناقص التغذية ، ومستثمر · وفي العام التالي اصدر / أمادو / روايته / «كاكاو» / التي استعرض فيها ذكريات طفولته ، والتي تريد أن تكون (وقد اوردنا اعلاه عبارة من مقدمة الرواية) «وثيقة» سوسيولوجية اكثر من كونها رواية بالمعنى الدقيق للكلمة،وهي تصوير للشغيلة الريفيين ، الذين بلد اذهانهم نظام الانتاج الذي لا يرحم ، والذي لم يترك لهم من مهرب آخر سوى الخمرة ، والجنس ، والعنف· ورواية / «عرق» /، المنشورة عام ١٩٣٤، تنقلنا من الريف الى المدينة ، حيث هؤلاء الشغيلة الريفيون ، الذين اصابتهم البطالة ، ولم يعودوا يتحملون اضطهاد سادتهم الاقطاعيين ، يبحثون عن حياة مأمولة أن تكون اكثر سعادة ، لكنهم لا يلقون في النهاية سوى استثمار آخر ، واستمرار نفس البؤس · وأخيراً رواية / «جيوبيابا» / (١٩٣٥) ـ التي ترجمت الى الفرنسية تحت عنوان «باهيا جميع القديسين» ـ وهي تختتم هذه السلسلة من الروايات · ان هذه الرواية هي رائعة من روائع / جورج أمادو / · أولا بشكلها الذي يستعيد، بصورة ما ، التقنية نفسها للادب المحكي الزنجي ، حيث يغني مرتجل وتجيب الجوقة المغني الاحادي · وهنا نجد الزنجي انطونيو بالدوينو ، بطل الرواية ، يلعب دور المغي الاحادي

وتجيب على غنائه جوقة من الاشخـــاص الثانويين ، وجنود ، وحمالون ، والعمال « المرتدون فقط قميصـــا وبنطلونا» ، انهم جماعة من الزنـــوج ، والخلاسيين والبيض الذي وجدتهم نفس الحالة من الفقر · وهكذا تتحول الواقعية الجديدة الى شعر · وسنجد من الان فصاعدا في أعمال / جورج أمادو / هـــــذا الاندماج الناجح للواقعية الاكثر فجاجة في الغنائية الاكثـــر نقاء · وفي الدرجة الثانية ، موضوعه الذي ينجح في ادماج الوثيقة السوسيولوجية(العلم ـ اجتماعية) مع المطالبةالثورية، ذلك لان / انطونيو بالدونيو / سينتقل ، في بحث نحو خلاص شعبه ، من دين الكاندوبليه الافريقي، الى وعي صراع الطبقات كما يجري التعبير عنه عبر اضراب عمالي يصبح زعيما له في صفحات الكتاب النهائية · ولكن يجب ان لا نخطيء ، فهـــذا التعاقب للخطتين في حياة البطل ، التي يمكن ان نشير اليهـــا بأسمي الزنوجة والماركسية ، لا يحول دون التداخــــل المتبادل للزنوجة ، التي هي احتجاج ثقافي واعادة التوازن للفوضى الاجتماعية من قبل نظام كوني جديد ، والماركسية التي تتجسد في آن واحد متزامن من الالهة الافريقية ـ نظـرا لكون الاولى (أي الزنوجة) هي البشارة بالثانية ، وزيارة أولى من قبل ملاك العدالة الى البروليتاريين الزنوج ، والثـــــانية لا تستطيع ان تنتصر الا بشرط ان تكف عن أن تكون تجريدا لنظريين لتتجسد في رجال ملموسين ، عابدي / الشانغو / الذي يرسل الصاعقة على الاشرار ، أو عابدي / اليمنجا / التي تهدهد على صدرها عذاب البشر (٧) ·

---

(٧) الشانغو : هو اله الصاعقة اليوروبا · واليمنجا : الهة ابـ اليوروبا، وهما من الالهة المعبودة في الكاندومبليه الافريقية في باهيا ·

مرحلة أمـادو الثانـية

□ ونستطيع ان نحدد السلسلة الثانية لاعمال جورج أمادو، مع كتاب مثل/ انطونيو كانديدو / أو /سيرجيو ميليتيا /(٨)، بصفتها مرحلة الجدلية (الديالكتيك) بين النزعـة الطبيعية ، النازعة الى الوثيقة، بل والدعاية السياسية، والشعر الشعبي، المكتشف والمتجسد في الرواية مع / جوبيابا / رغم أنها قـد تراكضت ، في عروق / جورج أمادو / ، في دمه منذ طفولته ٠ وهذا خلال حياة شديدة الاضطراب والغليان ، بما ان كاتبنا ، الذي انضم في عام ١٩٣٥ الى التحالف الوطني للتحرير، والى الشيوعية ، أو تقدمية كارلوس بريستس ، وقد اعتقل لاول مرة عام ١٩٣٦ ، ومرة ثانية في عام ١٩٣٧ ، بناء لامر حكومـة الرئيس فارغاس ، واستقر في بيونس ايرس عـام ١٩٤١ حتى عام ١٩٤٣ ، وبعد ان انتخب نائبا عام ١٩٤٥ من قبـل الحزب الشيوعي في ساو باولو ، اثناء محاولة اشاعة الديمقراطية في البرازيل،رأى نيابته تبطل حين حظر القانون الحزب الشيوعي، وعاد حينئذ الى طرقات المنفى، وعاش ابتداء من ١٩٤٨، باديء بدء في فرنسا ، ثم في روسيا حيث حـاز على جائزة ستالين للادب عام ١٩٥١ ٠ هذه الحياة هي التي تفسر جزئيا لمـاذا تصبح الرواية الطبيعية النزعة (ناتوراليست) عنده اكثر فأكثر رواية بروليتارية ، بحملها اعباء المطالبات السياسية ـ ولكـن في الوقت ذاته لماذا تتخذ رواية / جورج أمادو / ، التي هـي برازيلية بكل صدق ، رنينا دوليا أو أمميا ٠ وفي حيـن أن من الصعب على قاريء فرنسي لم يعرف المنطقة الشمالية الشرقية البرازيلية أن يفهم رواية / جوزيه لينس دو ريغو / ، لشـدة التصاقها بالواقع الاجتماعي دون ان تستطيع الابتعاد عنـه بمسافة كافية ، لتجد بذلك بعدا كونيا ، ـ فـان السجن والمنفى

---

(٨) راجع انطونيو كانديدو ، بريغادا ليجيريا ، ساوباولو ومختلف كتب س٠ ميلييت ، دياريو كريتيكو ، ساو باولو ابتداء من ١٩٤٠ حتى تاريخ وفاته ٠

قد أجبرا / جورج أمآدو / على الابتعاد بعض الشيء عن بلده، وعلى اعادة خلقه في خياله ، عبر حنينه وذكراه ، واعطائـــه بذلك بعدا شموليا ، عالميا وكونيا ، يجعل من ابطــاله الاخوة المتفهمين لناس جميع البلدان وجميع الاجناس ، بصرف النظر عن لون بشرتهم (٩) ٠

وفي الحركة البندولية التي تحمله ، خـــــلال هذه المرحلة الثانية ، تارة نحو الشعر الغنائي ، وطورا نحو الوثيقـــــة الموضوعية ، وان كانت جدالية ، تقوم رواية /البحر الميت / ، في عام ١٩٣٦ ، والتي هي قصيدة طويلة من الشعر المنثور ، و / قائد الرمال / ، في عام ١٩٣٧ ، وهـــي وثيقة مؤثرة حول الطفولة المتخلى عنها وشقاواتها ٠ في حين أن الجـزء الثالث من هذه السلسلة الجديدة، وهي رواية / أراض لا نهاية لها /، الصادرة عام ١٩٤٣ ، قد حياها النقد البرازيلي بالاجمــــاع بصفتها رائعة كاتبنا ، تحقق التركيب (التوليف) التـــام بين الوثيقة من جهة ، والشعر من الجهة الاخرى ٠ بيد ان النقـــاد الادبيين الذين ألحوا كثيرا على هذه الحركة البندولية ، لكــي يصدروا في اكثر الاحيان احكاما سلبية على / الروايـات ــ القصائد / أو / الروايات ــ الملاحم / و / الروايات ــ الوثائق / وعدم منح لقب «الرائعة» الا للروايات «الجنسـية» أو المشيدة تشييدا ، و «المهندســـة» ، حيث يتوازن الشـــعر والوثائقية ويتداخلان ــ هؤلاء النقاد قد اندفعوا كما نعتقد اكثر من اللازم في احكام ذاتية او تعريفات مسبقة لما هي : الرائعة ، عبــــر قوانين مزعومة للتاليف الادبي ٠ والواقع ان هناك حركـــــة بندولية فعلا ، تتمثل في ان الصلة بين الشــــعر ، والوثيقة ، والرسالة السياسية بذاتها ، لا تنقطع أبدا ٠ ان رواية |/ إالبحر الميت / هي حقا قصيدة جميلة مكرسة للبحر الموسيقي ، لكــن بطل هذه الرواية ، الذي هو اله افريقي ، / ييمنجا / ، يصبح،

---

(٩) في حين ان ترجمات روايات جوزيه لويس دو ريغو نادرة، فان روايات جورج أمادو قد ترجمت الى احدى وثلاثين لغة ٠

بتزامن سياسي يضاف الى التزامن الكاثوليكي ـ الوثني لبنات آلهة وقديسي باهيا ، وهي ألوهية رسالية ، وربة الامـــــل في حاضرة افضل، واكثر عدالة واكثر انسانية· وهكذا فقد رأينا، بصورة مقابلة ، في رواية تالية وهي / «حياة لويس كارلوس بريستس ، فارس الامل» / (١٠) ، يتحـــول رئيس الشيوعية البرازيلية ، في حركة تزامن معاكسة ، الى قاتل للوحوش، لكنه قديس جورج يفلت من التقديس الكاثوليكي ، لكي يجري اعادة التفكير فيه عبر الذهنية الافرو ـ برازيلية للالهة الذين يقاتلون في سبيل المؤمنين بهم(١١)· وبنفس الطريقة فان رواية / قائد الرمال / هي بالتأكيد وثيقة قبل كل شيء ، لكنها وثيقة لا يغيب عنها الشعر ، في شكل الحنان والشفقة ·

ومع ذلك يبقى أن رواية «أراض لا نهاية لها» تشكل حقـــا ذروة هذه السلسلة الثانية من الروايات · وقد سمى / انطونيو كانديدو / هذه الرواية / «رواية تاريخية» / · وقـد انتشرت هذه التسمية حينئذ · والواقع ان هذه الرواية تحكي حكايـــة المعركة الاخيرة الكبرى لاجل امتلاك الارض ـ والناس المرتبطين فيها بصلة العبودية ـ في مناطق الكاكاو · وهذا ما يجعل ان عالم «الكولونيلات» و «الاقطاعيين» لم يعد يظهر ، في تفـــرع ثانوي مانوي ، بصفته عالم الشر الذي يناهض عـالم الخير ،

---

(١٠) صدرت طبعتها الثانية مؤخرا عن دار الفارابي بعنوان «فارس الامل» بترجمة :أحمد غربية ·

(١١) هذا التقديس المتزامن، السياسي ـ الكاثوليكي ـ الوثني ليس خاصا بجورج امادو· ويمكن ان نجده في أدب الحمالين، الذي ما زال حيا في البرازيل ، والذي يتبعه جورج أمادو عن كثب في نفس العهد ، بما انه يكتب حينئذ سيرة لكاسترو ألفيس على نموذج الالقباء لتوالي البرازيل الجوالين · وهكذا فقد وجدنا ، في أدب الحمالين هذا، ملحمة شعبية مكرسة لشقيقة كارلوس بريستس ، التي صعدت ، بعـد موتها ، الى السماء لتجلس على يمين العذراء وتتوسط لدى أم الله لاجل مصير البروليتاريين البرازيليين · وهي أناشيد تتبع النظام الابجدي ·

الذي سيكون هو عالم البروليتاريا الريفية ، وهذا ما يجعل جورج أمادو يتعاطف لاول مرة - ليس اخلاقيا ، طبعا ، بل نفسيا - مع المستثمرين ، كما مع المستثمرين . والكاتب البروليتاري بادخاله هؤلاء واولئك في مقولة التاريخ ، وشرحه فاجعة الشغيل ، وبادراجه في حتمية تاريخية ، يفلت من الرؤية الوحيدة الجانب للوقائع الاجتماعية التي كان بعض النقاد الادبيين يأخذونها عليه حتى ذلك الحين . وقد اكد سيرج ميليت، من جهته ، على أن رواية / « أراض لا نهاية لها » / ، باظهارها العلاقة المتبادلة بين الاقتصاد والايكولوجيا (علم البيئة) والسياسة والاخلاق - ويمكن ان نقوم اليوم ، بوصف الكتاب من الداخل، واقعا اجتماعيا بصفته واقعا كليا - هي كتاب كبير جدا في علم الاجتماع ، يتجاوز أية جردة يستطيع اختصاصي بحث في العلوم الاجتماعيةان يقوم بها لهذه الفترة من التاريخ . هذا بالنسبة للجانب الوثائقي . لكن هذه الوثيقة التاريخية ، تحت قلم الروائي المعجز، تصبح - كما عند المغنين الشعبيين - شيئا اكثر ، اي ملحمة . وهذا بالنسبة للجانب الشعري . ومؤكد ان الشعر الغنائي يتدخل ايضا في / «أراض لا نهاية لها » / بصورة خاصة مع الماريات الثلاث (الماريات : جمع ماري) ، المكتوبة في قسم كبير منها على وزن مؤلف من سبعة مقاطع ، وهو خاص بالشعر الشفهي في البرازيل . ولكن ليس هذا هو الاهم ، ان الشعر ليس «مضافا» الى الوثيقة السوسيولوجية ، بل ان الوثيقة السوسيولوجية هي التي تنتقل هنا الى شعر . ولكي نفهم لماذا وكيف ، أرجو أن يسمح لي بايراد بعض العبارات من الرواية :

« كانت تلك آخر معركة كبيرة من اجل الظفر بالارض ، والاكثر ضراوة ايضا . ولهذا ما زالت تعيش عبر السنين ، وتمر وقائعها من فم الى فم ، يرويها الاباء لابنائهم ، والاكبر سنا الى الافتى . وفي أسواق الضواحي والحواضر ، كان الشعراء القوالون العميان يغنون قصة هذه المعارك ، وهذه

الاشتراكات بالبنادق ، التي كانت تروي بالــدم أرض الكاكاو السوداء ٠٠٠ » ٠

ويقوم جورج أمادو بعملية نقل كهذه بعد أن مر بمدرسة الشعر الابجدي، والمغنين العميان في اسواق القرى: لقد عاش مجددا تاريخ هذه الحروب بين العائلات ، والعشائر، والمصالح الاقتصادية ، كما عاش هوميروس حرب طروادة ، برفعها نحو الملحمة ٠ وهكذا مع هذه الوثيقة التي هي ملحمة ، والملحمة التي هي وثيقة تاريخية ، تكف الحركة البندولية التي انطلقنا منها ، مع رواية / «أراض لا نهاية لهـا» / باندماج تيارين ، الشعري والاجتماعي ، المرتبطين بالتأكيد كما سبق ان قلناه أعلاه ، في روايات هذه السلسلة ، لكنهما الان يشكلان شيئا واحدا ٠

في هـــذه الطريق الجديدة ، طـــريق تحويل الرواية البروليتارية الى ملحمة للشعب ، سوف يستمر عمـــل جورج أمادو ، مع / «القديس جورج في ايلباويس» / عـام ١٩٤٤ ، و / «الحصاد الاحمر» / عام ١٩٤٦ ، و / «خنادق الحرية» / عام ١٩٥٤ ٠ وقبل ان ندرس هــذه الروايات الجديدة نريد أن نفتح قوسين لاجل / «باهيا جميع القديسين» / التي صــدرت أيضا في هذه الفترة والتي تحمل ، بمثابة عنوان فرعي لهـــا / «دليل شوارع واسرار حاضرة سلفادور» / ٠ ان هذا النوع من الادلاء ، التي هي في آن واحد عملية وعاطفية ، مع عناوين سيارات الاجرة ، والاستيحاءات الغنائية لمناظر المدن ، قــد اطلقه / جيلبرتو فرايريه / ، لاجل مدينتي اوليندا وريسيف ٠ لكن / جورج أمادو / اضـــاف بعض الاشياء الـــى نوع لم يبتكره ، مدخلا السر الى داخل سيرة مدينة ما ٠ وهــذا ليس بدافع الارادة أو البراعة ، ولكن لانه يمكن القول عن الواقــع الباهياني ما يقوله / ج٠ ألكسيس / عن الواقع الهايتي ، وهو انه مصحوب «بموكب من الغرابة، والاعجوبة، والحلم،والنور الخافت ، والسر ، والرائع» أو أيضا انه مرتبـــط ارتباطا لا انفصام له «بالخرافـــة ، والرمز ، والصنـــاعة الاسلوبية ،

والشعارات ، بل والكهنوتي » (١٢) • الى حــــد أن الواقعية البرازيلية هي ، عند جورج أمادو ، كما هي في هايتي ، وبقوة الاشياء ، «واقعية اعجوبية رائعة» • ورواية / «باهيا جميــع القديسين» / هذه تقدم لنا البرهان المقنع •

في / «القديس جورج في ايلباويس» / ينتقل جورج أمادو من وصف الاقطاعية الفلاحية ، التي يعرفها جيدا ومن الداخل، الى وصف الرأسمالية المدينية، التي يعرفها قليلا ومن الخارج • وهذا ما جعل النقد يستقبلها دون حماسة • ولكن ألا يعود ذلك الى ان النقاد أرادوا أن يروا فيها وثيقة، في حين أنها لا تدعي ان تكون سوى ملحمة ، وأن الملحمة تنزع ، شئنا أو أبينا ، الى «مانوية» (١٣) ، الى التقابل الفج للابيض والاسود ، والخيـر والشر • فيجب اذن ان تتحول الى تنين ، وفم يلفــــظ النار ، وجسد يزحف في الوحل ، لكي يتمكن القديس جورج من شكه برمحه ! وتروي رواية / «المحصول الاحمر» / حياة فلاحــي «السيرتاو» في باهيا ، الذين ، لكي يفلتوا من البؤس والجوع والموت ، ينزلون باديء بدء في السيارات ، ثم في السفن على طول نهر سان فرانسيسكو ، نحو ساو باولو ، التي يتصورونها كأنها أرض الميعاد ! وفي هذا القسم الاخير على الاقل ، حيث نرى هجرة هذه الكائنات المريضة ، والمرتجفة من الحمــــى ، والقذرة ، واللابسة للاسمال ، والمحشورين والعائشين فـــي الاقذار ، ترتفع النبرة ، وتظل تتصاعد حتى الملحمة ، وتتوهج بألف نار •

---

(١٢) ج • الكسيس : «عن واقعية الهايتيين الرائعة» منشـــورات الحضور الافريقي ـ ص ٨ـ٩ـ١٠ ، ١٩٥٦ •

(١٣) ديانة فارستية وهي تقول بثنائية وتقابل الخير والشر •

مرحلة الروايات الساخرة
وملاحم المشردين عمـــدا

□ ·· فهل ان جورج أمادو ، لان هذه الاعمـــال الاخيرة ، رغم مزاياها ، قد ظهرت للنقاد الادبيين بمثابة «هبوط» اكثـــر منه صعود نحو قمم جديدة ، قد اتجه ، خائب الامل ، بعد ذلك الى طريقة جديدة في الكتابة ؟ أو أن مزاج كاتبنا قد تغير وهو يقترب من عامه الخمسين ؟ لست ادري · وعلى كل حال ، فقد أصدر في عام ١٩٥٨ رواية جديدة وهي / «غابريبلا كرافو اي كانيلا» / التي تدشن سلسلة تنتسب اليها كذلك رواية /«كانكان العوام الذي مات مرتين» / · وهذه السلسلة ما زالت مستمرة حتى اليوم ، مع مغامرات بطله الاخير ، المستوحى ، الى حـــد ما ، من عالم الاجتماع الزنجي ، والمتشرد بقدر ما هو عالم ، /مانويل كيرينو/ مرورا بـ «فيلبوس مارينبيروس» / (١٩٦١) و / «أوس باستوريز دا نواتيه» / (١٩٦٤) و / «دونا فلور أي سوس دواس ماريدوس» / (١٩٦٦) ·

ومؤكد أنه لا يوجد بين السلسلة الاولى والثانية انفصـــــام مطلق، لكن هناك تعميقا ، وكذلك بين السلسلة الثانية والثالثة، حيث من السهل اثبات وجود استمرارية: ان الواقعية المدهشة الرائعة ، والرواية الاجتماعية ، والشعر الملحمي تمتد من عام ١٩٥٤ حتى ١٩٧٠ · لكن عنصرا جديدا يظهر، وهو السخرية، التي لم تكن قد ظهرت بعد في أعماله ، حيث كانت الدرامـــــا (الفاجعة) تهيمن حتى ذلـــك الحين · وحينئذ اتخـــذ انتقاد البورجوازية شكلا غير مسبوق ، وكان ثمة صورة كاريكاتورية للطبقة الوسطى الصغيرة المنبثقة من العائلات الكبيرة المنهارة، لكنها ما زالت تحتفظ بجميع اوهام مناشئها ، التي تتبلور، ضد الشعب الذي تعايشه ولا تستطيع الانفصال عنه ، الا بوضعها بينها وبينه ، جـــدار تطهرها المرائي ، «للياقات» الواجـــب احترامها ، و «المظاهر» التي يجب انقاذها · أما الملحمة، فنحن

نجدها أيضا ، ولكنها هذه المرة لم تعد ملحمة الشعب المنبوذ ، بل هي ملحمة المتشردين عمدا ، والمعترضين حبا للحرية وشفقا بالشعب ، اولئك الذين يقطعون صلتهم بعالم الافكار المسبقة ، والاوهام ، والمظاهر وقواعد حسن التصـــرف ، للعثور على الحياة الحقيقية ، التي لا يمكن ان تكون سوى حياة الشعب ـ هذا الشعب المؤلف من بسطاء الناس ، المحبوب بحنان ، شعب السفيروس ، والحمالين ، وباعة الفطائر ، والكســـالى الذين يغنون بمصاحبة القيثار ، أو المومسات ذوات القلوب الكبيرة ، هذا الشعب الذي أحبه أمادو بحنان كبير ، والذي بادل الكاتب بنفس الحب والحرارة • واستطيع ان اقدم شهادتي ، انا الذي رافقته مرارا عديدة في شوارع باهيا ، حيث كانت تأتي / «بنات الله» / للركوع امامه طالبـــات بركته ، وحيث كان الباعـــة المتجولون يحيونه بصيحاتهم وضحكاتهم الرنانة ، وحيث كان الزنوج يشدونه بين سواعدهم ويقدمون له فنجانا من القهوة ، وكوبا من الخمرة ، تدليلا على الصداقة المناضلة •

هذا وانني لو كان علي أن اكتشف ، عبر جميع هذه التغيرات في الاسلوب أو الكتابة ، ما يشكل وحدة تفكير جورج أمادو ، لقلت بطيبة خاطر أنه كان دائما بطل الكائن ضد المالك ، وعفوية الحياة ضد البحث الخادع عن الثروات المادية • أو مظاهـــر الاحترام ، وأخيرا بطل الحرية ضد أشكال الاستلاب الذاتي ، (وبالطبع ضد الاضطهاد) •



لقد قام جورج أمادو ـ كما يشهد بذلك نجـــــاح رواياته المترجمة الى العديد من اللغات ـ في تحويل اقليمية متخصصة في فرديتها ، وهي شمالي شرقي البرازيل ، الى مقولة كونيــة شاملة •

ان الشمال الشرقي قد حـــــدد أحيانا بصفته أرض قصب السكر • والواقع أن طبيعته هي اكثر تنوعا بكثير ، وهنـــاك يزرع القطن أيضا ، في المنطقة الوسيطة الممتــدة بين الساحل

و «سيرتاو» ، والكاكاو في الادوية المنخفضة ، كوادي ايلوس، والتبغ في خليج باهيا ٠٠٠ ومع ذلك ، وبالرغم من هذه التنوعات ، فان الشمال الشرقي يشكل منطقة متجانسة ، اقتصاديا باديء بدء ، بنظامها العقاري ، وهو نظام المزارع الكبيرة ، وسياسيا أثر ذلك ، بنظامها السلطوي ، الاقطاعية الابوية (البطريرك) ، وثقافيا اخيرا ، بمناخها المزدوج ، الصوفي والشهواني ، حيث ان الاسم المعطى لمدينة باهيا القديمة «حاضرة جميع القديسين وجميع الخطايا» يعبر عنها بصورة رائعة ٠ وهي صوفية متعددة من جهة اخرى ، ذلك لان آلهة السكان المحليين لم تمت ، مع تنصرهم ٠ وهي ما زالت موجودة باستمرار في الكاندونبليه دى كابوكلس (١٤) ، التي كان / جوبيانا / جورج أمادو أحد قادتها ذوي المهابة ، أو في عبادة الجوريما (١٥) ! ان الارقاء الافريقيين الذين نقلوا الى شمالي شرقي البرازيل ، ليزرعوا فيه قصب السكر ولانتاج السكر ، قد جاؤوا بدورهم بآلهتهم السلفية ، آلهة اجدادهم القدامى ، التي تهبط في الليالي الاستوائية ، على قرع الطبول المهيب ، دائما في جسد ابنائهم وبناتهم ، وأخيرا فان المسيحية تتخذ شكلا خاصا تماما ، حسيا وديا في وقت معا ؛ تتابع غرابة اشكال التعاليم المضادة للاصلاح (ولذلك هي حسية) لكنها ، عند الشعب البسيط ، تصبح نوعا من الصلة الرفاقية بين الناس والقديسين ٠ وهي حسيات من طراز متعدد أيضا : باهيا جميع الخطايا ، خطيئة الشراهة ، مع قطع الحلوى ،

---

(١٤) كاندونبليه دي كابوكاس : لقد أعطينا في ما سبق ثلاثة مدلولات لكلمة كابوكل ٠ وهنا تتخذ الكلمة معنى جديدا ان الكابوكلات هي الاله أو ارواح السكان الاصليين ٠ وهذه الارواح تتجسد في الاحتفالات التي تسمى ، مع الاحتفالات الدينية الافريقية ، ايضا كاندونبليه ٠

(١٥) الجوريما: هي شجرة من اشجار السيرتاو التي تعطي قشرتها أو جذرها المنقوع في الماء والتي يشربها المؤمنون بدينها، تعطي تخيلات مهلوسة (هلوسات)

ووجباتها من حليب جوز الكاكاو أو بالزيت النباتي العطر ، وفطائرها اللذيذة ، ومجموعة خمورها المستخلصة من قصب السكر ـ ، وخطيئة الشبق ، ـ ولكن على الاخص خطايا الجسد ، اذ انه كيف يمكن الصمود امام اللون البني ، والمشية الراقصة ، والجمال المتلوي ، لخلاسيات البلد ؟

« السمراوات ساحرات
انهن يجبرن البيض على القول
« ان الحب الذي تعطيه السمراوات
لا تستطيع البيضاوات ان تقدمه » ·

كثيرا ما قيل ان حضارة الشمال الشرقي هي حضارة تقليدية · وهي كذلك حقا ، ذلك لانها تحتفظ بأنماط قديمة من العلاقة ، (البيض الذين يكونون عرابي الزنوج ، والاختلاط الذي لا ينقطع ، في الزواج واكثر ايضا في التسري (المعاشرة غير الشرعية) للالوان والدماء ، وكذلك في المؤسسات القديمة (الملكية الكبيرة ، وفولكلور البيض المتوسطي ، مع اغانيه الرعوية الريفية ، وفولكلور الزنوج البانتو ، مع رقصات السانبا الخاصة به) · ومع ذلك فليست هذه حضارة مجتمع ساكن ، بلا حركة · ذلك لان مطحنة السكر القديمة ، قد حل محلها ، خلال القرن التاسع عشر ، المصنع ، وقد جرى تدمير الارستقراطية مالكة الاراضي لتحل محلها ارستقراطية اخرى، من طراز رأسمالي ، والزنجي الذي كان عبدا رقيقا ، والذي سقط هكذا في شباك العائلة الابوية (البطريركية) الكبيرة ، قد اصبح بروليتاريا ·

عبثا تغيرت الاشياء
فالزنجي ما زال يعمل بلا انقطاع
ويعيش عيشة سيئة
ويتضور جوعا
أين هو ١٣ أيار ؟ (١٦)

---

(١٦) ١٣ أيار ١٨٨٨ ، تاريخ الغاء الرق في البرازيل ·

ان الانقطاع ، بالعكس ، بين المياوم الريفي ، المجبر على بيع قوة عمله ، الى «الكولونيل» (١٧) ، سيد الاراضي ، وبروليتاري باهيا ، العائش في اكواخ وهو في اكثر الاحيان عاطل عن العمل اكثر منه مستخدما ، والسيد الابيض، من جهة أخرى ، كان يزداد شدة باستمرار ـ منشئا في هذا الشمال الشرقي المتناقض ، فوق الثقافة الافرو ـ باهيانية ، ثقافة أخرى ، هي التي سماها علماء الانتروبولوجيا الاميركيين الشماليون «ثقافة البؤس» ٠

ذلك هو هذا الشمال الشرقي الذي سيعيش من جديد في رواية جورج أمادو ٠ لكن فرادته هي نفسها كانت تستطيع بصعوبة ان تجعل منه قابلا للايصال ، ان لم يكن الى البرازيليين ، فعلى الاقل الى الشعوب الاخرى (التي ترجمت أعمال أمادو الى لغاتها) ٠ لقد كانت الماركسية الوسيلة التي توصل كاتبنا الى أن يعطي لوصف الشمال الشرقي طابعا شموليا كونيا ، بتركيزه على البروليتاريا الباهيانية ، كمثال أكثر عمومية بكثير ، وهو وصف استثمار الانسان للانسان ، ـ وصف الاقطاعية البرازيلية كنموذج لاقطاعية البلدان المتخلفة،ناقصة التطور ـ وبذلك نفسه وصف الوضع الاجتماعي للشمال الشرقي ، مع الاحتفاظ بنكهته الغريبة القادمة من بلاد بعيدة ، الذي اصبح «قابلا للايصال» ، الى «الغير» ٠ ان خصوم أدب المشاركة ، واتباع النزعة الطبيعية الوصفية البحت ، قد استطاعوا أن يأخذوا على جورج أمادو ماركسيته ٠ وهم لم يروا ، أو لم يفهموا أن ماركسيته كانت اكثر من ايديولوجية سياسية ٠ انها أيضا ، وبصورة أساسية جوهرية، طريقة فنية ـ وهي عملية التطور التي يخلص عبرها الشيء الانساني من

---

(١٧) يشار في البرازيل الى كبار الملاكين باسم «كولونيلات» ، رغم أنهم ليسوا كذلك ، أو لم يعودوا كذلك ، لان الحكومة انشات في العهد الامبراطوري ميليشيات ، وكان يقود هذه الميليشيات أعيان البلاد ، من رتبة كولونيل ٠

الافرادية ، ليبلغ الشيء الشمولي الكوني ٠
لكنه ، طبعا ،شمولي كوني لا يظل مجرد مقولة مجــردة أو فاقدة التجسيد ٠ وهو يظل متجذرا ، بالعكس، في ثقافة معينة، افريقية بقدر ما هي اوروبية ، في وســـط بيئوي معين ، حيث يتحاور البحر مع الغابة الاستوائية ، في وسط اجتماعي معين، هو وسط الصراع من أجل الارض ، لبورجوازية صغيـــرة ، مشلولة في عبادة المظاهر ، ومتشردين في سبيل الحرية ٠ بل لقد ذهب الى أبعد من ذلك أيضا ، لقد بينا أن هذه الماركسية ، في الفترة «الماركسية» من أعماله ، المتخطاة كما يبدو اليــوم بواسطة السخرية وفي السخرية ، تطيـــــع قانون التوفيقية ، المميزة للاديان البرازيليـــــة ، التي جعلت في الماضي الالهة الافريقية تستوعب من قبل قديسي الكاثوليكية ، والتي تجعــل أن باستطاعة ابطال الشيوعيةان يستوعبوا الان ابطال السيرة المسيحية المقدسة ٠ ان ماركسية جورج أمـــادو هي ماركسية دينية ، بمقدار واكثر ما هي ماركسية سياسية (كما ينبغي الامر على هذه الارض التي قلنا انها ارض صوفية) التي يدخل اليها المرء كما يدخل الى الكنيسة ، عبر تحــول حقيقي «بالايمان» : جوبيابا ، عبر تجربة الاضراب مثلا ــ وهــذا التحول الايماني يتجسد في تطور كـــامل للشخصية ، تغيـــر الرجل المسن ، «الشرير» ، مثلا في رواية / «المحصول الاحمر» / حيث تمحي خطيئة العنف نهائيا ليحل محلها نقاء القلب ٠ انهــا ماركسية دينية ، وماركسية رسولية أيضا، وهي ــ دون أن تزدري المادية التاريخية لاجـــل تفسير المعطيات الاجتمـــاعية الراهنة ــ تتجه نحو فردوس المستقبل اكثر منها تفسير الماضي : « ان يوم الغد سيكون افضل واجمل» ٠ أن ماركسية جورج أمـــادو هي رسولية الامل ٠

هذه ، كما تبدو لنا ، هي السمة الاولى المميزة لاعمال جورج أمادو الروائية ٠ انه يروي لنا قصصا فريدة وغريبة ، عن بلد خاص جدا وطريف ، معطيا اياها قيمة كونية شاملة ٠ وهــذه

القصص هو «يرويها لنا» ، وهذه هي السمة الثابتة المميزة لاعماله وربما الاكثر اهمية ، بما أنها في السلسلة الثالثة التي ميزناها في تطوره ، هي العنصر الذي يبقى ، والذي يصبح أساسيا : ان جورج أمادو هو قاص ، راوية ، وذلك بصورة أساسية · ولا شك أنه توجب عليه ان يتلقى ، مثل جميع الاولاد البيض من الاسر الجيدة ، تعاليم / الاباء / ، ولكننا رأينا أنه قد فر من الكلية ، ناجيا بذلك من استلاب تربية اجنبية · ان معلميه الحقيقيين هم المرضعات الزنجيات والرواة المسنون لقصص طفولته الفلاحية :

يذكرنا / أ · ب · ايليس / بأن لدى الافريقيين طبقاتهم من رواة القصص : «هناك بعض الاشخاص الذين يحترفون رواية القصص ويذهبون من مدينة الى مدينة لسرد الحكايات» هناك / الاكباليه / الذي يروي الـ « آلو » أو الحكايات · وهناك / «الاروكان» / الذي يروي تواريخ الماضي · والاكباليه هي مؤسسة أفريقية ازدهرت في البرازيل في شخص الزنجيات المسنات اللواتي كن يقضين اوقاتهن في رواية القصص · انهن زنجيات عجائز يذهبن من طاحونة الى اخرى ، كما يقول لنا / جيلبرتو فرايرد / (١٨) · هناك زنجيات مسنات · ولكن أيضا زنوج مسنون · وهنا أكابولكيون ، يكملون عمل اولئك ، محولين قصصهم الى اغان مع مصاحبة القيثارة · هؤلاء الاكابولكيون من منشأ افريقي ، الذين «تبرزلوا» ، هم الذين علموا جورج أمادو فنه الفريد ، الذي لا يمكن محاكاته ، في رواية القصص ·

نستطيع الان ان نعود الى نقطة من عرضنا ، التي أشرنا اليها بصورة عابرة ، دون ان نعطيها حينئذ التفسير ، وهي الانتقال من الرواية الطبيعية (الناتوراليست) مع جورج أمادو ،

---

(١٨) ج · فرايرد «سادة وعبيد» الترجمة الفرنسية دار منشورات غاليمار ١٩٥٢ ص ٢٧٩ ·

الى رواية الشعب · وقد نوهنا حينئذ بأن النزعة الطبيعية قد بقيت ، مع /جوزيه لينس دو ريغو/ و /غراسيليانو راموس/، اكبر مؤدبها المعاصرين، وهي أدب طبقي، للطبقة الارستقراطية القديمة المنهارة في عصر من التحول البنيوي ، وهو الذي يؤكد على الانتقال من الرأسمالية العقارية الى الرأسمالية الصناعية· انه أدب اشراف كبار مفلسين ـ أدب يصور الانحطاط ، الاجتماعي والخلقي ، للسلالات القديمة من سادة الاراضي والعبيد ، وليس أدب الشعب ، بالمعنى الدقيق للتسمية ، نظرا لان الشعب لا يظهر الا في صلته مع هؤلاء الاشراف المنهارين، في علاقات متبادلة ، وليس أدبا لطبقة مستقلة ذاتيا · وقد تحدثنا حينئذ عن «معجزة» تحققت في الرواية الطبيعية مع مجيء جورج أمادو : وقد وجد الشعب في أعمال أمادو ، لاول مرة ، تعبيره الجمالي (الاستاطيقي) وكان يظفر باستقلاليته الذاتية ، وما قلناه ، عن الرواية الطبيعية ، يمكن قوله كذلك بالنسبة للرواية الاقليمية أو الريفية · ذلك لان ما سمي أدب «السيرتاو» مع / الفونسو ارينوس / أو / مونتيرو لوباتو / ، ليس هو تماما أدب الشعب ، الذي أبطاله الوحيدون هم فلاحون و «كابوكليون» · لكن الكابوكل هنا هو موضوع (أو تيمة) مدروس من الخارج ، وليس شخصية عاشها الكاتب مجددا·وهي أيضا بالتالي رواية للطبقة البورجوازيةالصغيرة المدينية ، التي انفصمت عن الارض ، ولكن التي تحتفظ بحنين الى مناشئها الريفية وعلاقاتها الابوية مع الشعب · وهو أدب بصورة عامة لعطلة الاسبوع أو المسكن الثانوي ، (وكنا نقول في اللغة البرتغالية انه اذا كانت رواية الشمال الطبيعية هي رواية ملاكي الانجنيوس ، فان الرواية الاقليمية لجنوب البرازيل هي رواية مالكي الدارات الريفية الصغيرة / اشاكاراس /حيث يقصدها الناس للراحة ، أيام الاعياد ، لاخذ حمام من الطبيعة) · أما جورج أمادو فبالعكس، فلم يعد رجل المدينة هو الذي يتكلم عن الفلاح ، بل هو الفلاح الذي يمضي لرواية قصته لرجال البورجوازية المدينية ·

مآخذ على أمادو
من معايير مختلفة

□ ونحن نفهم الان كيف ولماذا هذا التطور المزدوج ، للرواية الطبيعية والرواية الاقليمية كان ممكنا • ذلك لان الشعب كان قد اصبح لديه تعبيره الادبي الصادق ، وهو الادب الشعبي ، أدب / الاحرف الابجدية / ، ورباعيات الحب ، وأدب مرتجلي القصص، والقوالين الفلاحين الذين يتغنون بمآثر قطاع الطرق وتنبؤات المنقذين•هذا الادب الشعبي، المليء بالنسغ والحيوية، وبالعفوية الخلاقة ، والايقاع المضبوط على وتيرة التنفس الرئوي ، سوف يمر عبر دماغ جورج أمادو وقلبه ، ويغتني حينئذ بمزايا جديدة ولا شك، ثقافية (الايديولوجيات السياسية مثلا) أو أدبية (معرفة الادب الواسع الثقافة،الوطني والاممي)، ولكن مع الاحتفاظ من أصوله الفولكلورية بتجذر الرؤية في الرسالة الشعبية • وقد أحس منتقدوه بذلك جيدا ، ليسجلوا عليه مآخذا • أنهم يتحدثون عن روايات مرتجلة اكثر مما هي ، جماليا ، مبنية • وعن اهمال معين في الاسلوب ، الذي يرخي له الكاتب العنان ، بدلا من ضبطه بقسوة • وعن نقص في الاختيار أو رتابة المفردات • وعن عبارات رديئة الصنع من الناحية النحوية • وحتى لو كانت هذه المآخذ ذات أساس ، فيجب ان نعتبر أن هذه النواقص ليست سوى الجانب الاخر من اكتشاف كبير: نوع جديد من الرؤية الطبيعية، كان مجهولا كليا في البرازيل، حيث يتكلم الشعب أخيرا بوساطة الروائي– تماما كما أن الالهة الافريقية التي حلت في الاجسام المهتزة لبنات «القديسين» تتحدث بوساطة هذه الفتيات السكرى الافريقيات • ولا شك في أن هذا الاكتشاف يستحق بأن يهمل أمادو لاجله ، أحيانا، وباستسلامه الى دوافعه، مسائل الشكل، وأن يكون هناك احيانا ، كما هو الحال لدى المغنين الشعبيين حشو لسد ثغرات الالهام •

ولكن هل يتعلق الامر حقا بنواقص ؟ ان الفكرة التي ندافع عنها هنا ، هي انه لا يجب الحكـــــم على كاتب باسم معايير مستعارة من أدب آخر غير الادب الذي يمارسه · واذا كـــان تأليفه ليس كلاسيكيا ـ اذا لم نجد في بعض الروايات هـــذه الهندسة المعمارية الخفية التي تحدثنا عنها ـ أليس ذلك لانها تستجيب لنمط آخر من التأليف ، الـــذي هو الادب الشفهي ؟ واذا كان أسلوبه الفج يصدم احيانا اذان المتحذلقين ، فـــان البذاءة ليست أبدا لديه غيبية (ميتافيزيقية) كما هي عند ميللر، بل بما هي أيضا عملية اعتراض (عند هذا الماركسي مـع ذلك) على المجتمع البورجوازي كما هو الجنس عند معترضينـــا الشبان: انها لغة الشعب الذي يتحدث عبر الكاتب، وفي ذاته· واذا كانت عبارة أمادو مرتخية أحيانا ، فذلك لانها تطيع أيضا معيار هذا الادب الشعبي، الذي يبحث عن نفسه قبل أن يجدها، وأنا اعترف بأنني لا اعرف شيئا اكثر اثارة للشغف من هـــذه التجارب ، وهـــذه الاخطاء ، وهذه التصحيحـــات للمغنين الشعبيين، حين يرتجلون، الى ان تنبثق اخيرا الرباعية الكاملة من هذه التحسسات الاولية ـ هذه الرباعيةالتي تقبلها الجوقة، وترددها ، موسعة بجميع الاصوات التي تغذيها ، وتلقيها الى الجمهور ، الى السماء المنجمة ، والى الجبال القريبة او الى رمال الساحل · وهذه احدى اجمل الذكريات التي احتفظ بهـا عن البرازيل ·

ان جورج أمادو هو راوية حكايات · وتجب العودة دائمـا الى هذا التعريف· وهناك مأخذ اخر كثيرا ما يوجه الى أمادو، وهو ان شخصياته فاقدة للبعد النفسي · وقد دحض/ انطونيو كانديدو / هذا المأخذ · اناولئك الذين يعتقدون بأن التحليـــل النفسي هو الطريق الوحيدة لمعرفة الانسان هم نقاد خضعوا للتأثير الاوروبي ، حيث لا يوجد للروائي ، منذ رواية / «اميرة كليف» / وبالتالي منذ نشأة الرواية ، عملية أخرى لاضـــاءة الشخصية سوى التحليل النفسي · وليس جورج أمادو جزارا أو طبيبا يحنط الجثث · وشخصياته ليست محنطة ، انهـــا

حية (١٩) · وهي تسير وتهتف وتسكر وتمارس الحب ، وتقتل أو هي تقتل ذلك لان راوي الحكايات لا يقوم بالتحليـــل ، ولا يقتطع الشيء الحي، ولا يحيله الى تداعيات للافكار أو الصور، وهي يقول (يروي) عمل كائنات ملموسة ، غارقة في الواقع ، بل واحيانا متكافلة مع الماء والغابة والريح · لكن هذا لا يعني أن شخصياته فاقدة للعمق النفسي ، الا ان هذا العمق النفسي، يجب التقاطه على مستوى السلوكات المعاشة ، وهو المستوى الذي يقدم فيه راوية الحكاية ·

وهناك مأخذ ربما كان اكثر أساسا ، وهـــو أنه اذا كانت شخصياته من الذكور حية ، فليس هـــذا هو حال شخصياته النسائية · ومن جهة أخرى ، فهذا المأخذ لا يقوم فقط ضده، بل ضد جميع الكتاب البرازيليين ، ربما مع استثناء واحد ، وهو / ماشادو دي اسيس / (٢٠) ولكن هذا أيضا، ألسنا مخدوعين ببعض المركزية الاثنية ؟ واذا لم يكن للمرأة ، بالمعنى النفسي ، نفس وزن الشخصيات المذكرة في مجمل الادب البرازيلي، أليس ذلك بسبب التقاليد الابوية (البطريركية) التي تجعل من المــرأة الملونة غرضا للذة لاجل الذكر ، الفحل والمتعدد الزوجات، ومن المرأة البيضاء نوعا من القديسة المنزلية ، التي تعيش في ظـــل زوجها وسيدها ، المحكوم عليها بالامومة كما بالعمل في غرفة الخدمة ؟ ويجب ان ننتظر بأن تستيقظ المرأة من سباتها لكــي تتمكن من أخذ مكانها في الادب ، وهي قد بدأت تأخذه ، منــذ بضع سنوات ، في الوسط الجنوبي للبرازيل · ولكن مــا زالت التقاليد البطريركية (الابوية) في الشمال الشرقي ، قوية جدا بحيث لا يرى الرجل في المرأة سوى موضوع للذة أو كربــــة منزل ، ذلك لانها ما زالت هناك ، ربما فقط ، أو موضوعا للذة

(١٩) انطونيو كانديدو ــ المرجع المذكور سابقا ·

(٢٠) انظر بصورة خاصة الترجمة الممتعة لروايــة «دوم كازميرو» بقلم فرانسيس دي ميوماندو ، منشورات غاليمار ·

أو ربة منزل ولم تصبح بعد ذاتا . فاذا كان هـــذا التفسير صحيحا ، ونحن نعتقد بأنه صحيح ، فان «الفقـر العاطفي» أو «الطبيعة الجنسية» لنساء جورج أمادو ، وطابعهـا «البدائي» و «الغريزي» الذي يتحدث عنه / س. ميليت / ، تطابق واقعا ، وليس هو نقص في التعمق النفسي من جانب كاتبنا . بل يمكن المضي الى ابعد من ذلـــك ، والوصول الى التأكيد بأن هـــذه الكائنات ، رغم أنها «بدائية» و «غريزية» ، تلعب عنـد جورج أمادو دورا ايجابيا ، وانها تشغل في هذا المجال مكانا أهم منه عند كثير من الروائيين الطبيعيين الاخرين ، وانها ليست اذن مجرد «دمى او عرائس» او مجرد نسخ مكررة عن المرأة كمـا يراها الذكر ـ بل هي من بطلات العمل والكفـــاح ، وبالتالي كائنات حية تماما ، حتى ولو كانت بسيطة . بحيث ان هـــذا الراوي للحكايات قد استطاع أن يروي اجمل قصص الحب أبدا التي أمكن أن تروى في البرازيل . وهي من جهة اخرى قصص حب يتسع فيها الحوار الجسدي بين الرجل والمرأة ـ وهذا ما يشكل جمال تلك القصص في الواقع ـ ويندلح في حوار اخــر اكثر كونية ، وهو القائم بين الملحمة ، التي يمثلهـــا الذكر ، والنزعة الغنائية الغريزية ، التي تمثلها المرأة .

الشــــعر
في روايات مختلفة

وهكذا نصل الى ميزة جديدة لرواية جورج أمادو الطبيعية، وطابعها الشعري بالاساس ، الذي يميزها بوضوح عن النزعة الطبيعية الاوروبية ومكمليها البرازيليين مثل /جواو ريبيرو/، مثلا .

وهي اشعار بالجملة وليس بصورة مفردة . ومن المستحسن تميز ذلك . وهناك باديء بدء شعر ملحمي ، هو شعر المعارك الكبيرة في /«أراض بلا نهاية»/ باشتباكاتها بالبنادق وقتلتها،

وشعر الحركات المطلبية لعمال باهيا في رواية / «جوبيابا» / وشعر / الكانفاسيروس / أو المهجرين في رواية / «الحصاد الاحمر» / والى جانبها شعر غنائي، وهو شعر رواية / «البحر الميت» / ، بلازماتها ، وموسيقى الامواج أو مداعبة النساء ، وشعر الماريات الثلاث ، وشعر ابجدية / كاستري ألفيس / أو ايضا شعر حياة /كارلوس بريستس/ لكن جميع هذه اللحظات الشعرية ترتبط ارتباطا وثيقا بالادب الشعبي ، بل حتى في ما وراءه ، بالموسيقات الافريقية لـ «الكاندونبلات» التي تتقمص أحيانا ايقاعها الساحر٠ذلك لان ما يحدد هذه الانماط الشعرية، مثل ما يحدد بصورة صحيحة الادب الشعبي، البرازيلي على الاقل ، هو الحركة ، وليس غنى الصور ٠ وبهذا يتميز جورج أمادو ولا شك عن مواطنه / كاسترو ألفيس / ، الذي يتوهج شعره ـ لكنه شعر ثقافي ينطلق من فيكتور هيغو ـ بالصور ، الجديدة دائما ، وكثيرا ما هو ساطع مبرق ٠ ان شعر جورج أمادو ليس شعر صور (وان كنا نجد عنده صورا ولا شك ، لكن صوره ، تدين بقيمها لكونها مكررة باستمرار ، كما في رواية / «البحر الميت» / ، اذن على الاخص بطابعها المؤرق وشبه المهلوس) ان الحركتين الملحمية والغنائية ، تتعاقبان في أعمال امادو او تتقاطعان فيعمل واحد، وانالحركة الملحمية (كمافي بعض قصائد ادب الحمالين) توسع حركة الناس الى ابعاد الاسطورة ، وهي تلك التي يتغنى بها في السهرات الشعبية ٠ ان الحركة الغنائية تعمل بالتكرار الايقاعي لنفس التيماتحسب قانون الحوار بين المغني الاحادي والجوقة ، كما يعمل مبدعو «السامبا» ، و «الجونغو» أو مرافقو «الكوبويرا» ، في الاعياد الشعبية ٠

هناك شعر الموضوعات (التيمات) وشعر اكثر حميمية وسرية ، تحدده بصورة جيدة ما يسميه الهايتيون «الواقعية الرائعة المدهشة» ٠ وباديء بدء شعر الموضوعات (التيمات) : البحر ، والليل ، والغابة ، والريح ، والحب ، والعاصفة ، التي يأتي ، بعضها اثر البعض الاخر ، حاملة غضباتها وحالات

عنفها الى أهواء الناس القتالة ، وحالات رعبها الى الرجال المطاردين ، أو مداعباتهم وحنانهم للكائنات التي جرحتها الحياة . وكما في معزوفة موسيقية متعددة الاصوات ، تظهر هذه الموضوعات (التيمات) وتختفي وتعود من رؤية الى أخرى ، موحدة اياها بصورة ما ، ومطورة اياها ، من احجام منفصلة في التسلسل الزمني ، في «تتابعة» موسيقية . وقد تحدثت الان عن موضوعات (تيمات) ، لكن البحر ، والليل ، والعاصفة هي ، في الاساس ، اكثر من موضوعات ، انها شخصيات وابطال ، حقيقية ، واقعية جدا ، وحية جدا ، مثل بولدونيو أو اسراب الاولاد الذين يلعبون لعبة «الغلمان الارديا‌ء» على رمال / باهيا / الذهبية . وليس دون عقاب كرن جورج أمادو هو / اوغان / ليتربيرو / دي سانهورا / (٢١)، وأنه يقدم اضاحي الى الالهة الافريقية، ويهز منديله أمام بنات الالهة المأخوذة في حالة انخطاف : وهو سيتحدث عن جيمانجا ، وعن دونا جانينا ، بصدد البحر ، أو عن اوكسوسي ـ القديس جورج بصدد النضال الثوري . ان شعر الموضوعات (التيمات) ينتهي هكذا في عبادة آلهة متعددة، وهي لا صلة لها ، طبعا ، بوثنية شاعر مثل / رونسار / ، أو وثنية الادب الكلاسيكي الفرنسي ـ ذلك لانه عند أمادو معاش بمثابة مشاركة صوفية بين الانسان والماء ، والنار ، والهواء وحياة الاشياء الراعشة. ولكن بالضبط فلأن السكان الاصليين أولا ، ثم الافريقيين ، قد ملأوا الشمال الشرقي بأرواحهم ، وبعرائس البحر ، وبآلهتهم ، أصبحت واقعية جورج أمادي واقعية الشيء الرائع والمدهش . ان المدهش ليس مكزوزا عن الواقع، بل انه يشكل جزء لا يتجزأ من الواقع. وهكذا اذن فان

---

(٢١) أوغان : عضو المراتب الدينية الافريقية ، وبيربيرو ، هو مكان يحتفل فيه بالكاندونبليه . ان كاندونبليه اوبو افونجو ، التي تقودها في السنوات الاخيرة «سينهورا» (بالعربية نقول السيدة الكبرى) هو من اشهر واروع احتفالات باهيا الدينية .

الواقعية تكتشف السر باخلاصها للنزعة الطبيعية أي للوصف المضبوط لمظاهر الحياة الواقعية المحيطة، وهي بدلا من التوقف عند سطح الاشياء ، تدخل الى العالم الخفي والعميق ـ من حيث يشع للقاريء شعر جديد ·

واخيرا ، ودون ان يكون هناك انقطاع للديمومة، يظهر شكل جديد للشعر في روايات جورج أمادو الاخيرة ، وهو شعر أسميه، نظرا لعدم وجود تسمية أخرى، شعر السخرية والهزل، انه شعر المهزلة الكبيرة،الذي هو في وقت معا ملحمي وغنائي: وهو شعر / «كانكان العوام الذي مات مرتين» / مثلا · حيث نرى الضحك ، كما لدى كاتبنا رابليه ، (وهو كاتب مغتن بالتعابير الشعبية ، والتقاويم الفلاحية والفولكلور الغالي(نسبة الى بلاد الغال ، فرنسا القديمة) وهو يصبح ، بسبب كبره بالذات ، شكلا خاصا للشعر، والشعر الرائع المدهش ـ أو على الاقل الشعر المعجز · وحينئذ تكتمل الدائرة ، التي تقودنا نحو الاعلى ، من / «بلاد الكرنفال» / ··· الى / «كانكان العوام الذي مات مرتين» / · ذلك لان الجنون الكبير ، المفرط الحيوية، الذي يهز البرازيل طوال ايام الكرنفال الثلاثة ، في التهريجة المرتجلة ، لم يكن يخفي ـ تحت ضحكه ـ سوى بؤس البشر ، أي الواقع المأساوي للبرازيل الاخرى ، في حين ان الجنون الكبير لرواية / «كانكان العوام» / يصبح ، بعد أن يحركه المتشردون ، والصيادون ، والمومسات ، وعامة ناس باهيا البسطاء ، السلاح الثوري الذي يفضح استلاب مجتمع البورجوازية الصغيرة المدينية ، وكون الضحك يتخذ فيه طابع الصرخة الظافرة التي تلقى فيوجه هذا المجتمع من قبل الناس، البؤساء ولا شك ، لكنهم احرار على الاقل ·

وسيعذرنا القاريء لاننا ألححنا على هذا العنصر الشعري في أعمال جورج أمادو · لكن ربما كان ذلك الالحاح لان هذا العنصر هو الذي يمسنا من هذه الناحية · وقد سبق ولا شك القول عن نزعة /زولا / الطبيعية (ناتوراليست) انها كانت أقل مما كان يريد أو يطمح ان تكون ، أي اثباتا للرواية التجريبية

أو العلمية ، وأنها كانت في الاساس ملحمة شاسعة الابعاد ـ وهذا ما يقربه بمعنى من المعاني من جورج أمادو،الذي لاحظنا عنده كذلك اهمية العرق الملحمي ٠ لكن الامر يتعلق بنوع اخر تماما من الملحمـــة ٠ ان / زولا / يجر في ملحمتـــه تقيؤات السكارى ، وأقذار الاكواخ ، والجـــروح المتعفنة للمصابين بالسفلس ، وحيوانية الذكـور الذين يضاجعون نساء أذبلتهن حياة البؤس أو المصنع ، وهذه ملحمة ولا شـك ، ـ ونحن لا نتجاهل جمالها ـ لكنها تفوح برائحة المني والبول ٠ لانهـــا ملحمة اشخاص نسوا غناء العالم ٠ ان ملحمة جورج امادو هي من طبيعة أخرى ، ذلك لان الدم الذي يسيـــل فيها يختلط بالارض الغاذية، ويمتليء الحب الجسدي بعسل قصب السكر، او انه يتماشى مع أيقاع عناقه وموسيقى امواج البحر القريب، المكون من فيروز وزبد ، وانه حتى القذارة اللزجة للسفينةالتي تقل النازحين ـ مع كل واقعية وصفها ـ لا تمنـــع ان تغطيها السماء الشاسعة وان في هـــذه السماء تلمع نجمة الامـــل الصغيرة ٠ أذن فالامر يتعلق بشعر اخر تماما . حين يجـري الحديث عن شعر ج٠ امادو ٠ ويمكنه ان يتحدث جيـــدا عن المؤخرة والقضيب ، وعن البول والبراز . لكن كل شيء عنده مغمور بشعر لا يمكن وصفه ، يأتي من شفافية البؤس امـــام الطبيعة ، ومن هذه المشاركة للنباتات، وانفاس الارض، وحنان المياه ، مع الشفقة الكبيرة التي يثيرهـــا الشغيلة المستثمرون (بفتح الميم) والمرضى والمجوعون ٠

مسألة النقائض الثنـائية فـي أدب البرازيـــل ؟

لقد أدى الامر بعلماء الاجتماع الذين درسوا البرازيل الى أن يقترحوا دائما ـ لكي يحيطوا بالبرازيـــل في مقولاتهم ـ منظومة ثنائية القطب ٠ وباديء بدء /جيلبرتو فرايره/ ، الذي تدل عناوين مؤلفاته الرئيسية بصورة خاصة على هذا النظام

من التعارضات المتناقضة : / كازا غراندي / و / سانزالا / للبرازيل الريفية والكولونيالية أي منزل الســــادة البيض ـ واكواخ الارقاء الافريقيين ، و /سوبرادوس/ و /موكامبوس/ للبرازيل المدينية والامبراطورية ، أي دارات السادة البيض ـ واكواخ الزنوج • الاضرحة والحفر في مقابرنا الحالية ، كمـا لو ان الموت لم يكن يلغي تفرع الاحياء الى طبقتين متعارضتين، وهو تفرع يستمر في شكل انصاب فخمة ، تحفظ مجد الانساب القديمة ، والى جانبها غفلية الارض الاكلة للفقراء، والاشقياء، والمعدمين • ان اخر عنوان من هذه السلسلة السوسيولوجية الكبيرة التي وضعها /جيلبرتو فرايره/، الذي يستعيد الشعار الوضعي المسطور على الراية البرازيلية للجمهورية «نظـــام وتقدم» ، هو ايضا عنوان ثنائي القطب ، وان كـــان قائما على صعيد اخر،وهو صعيد الصراع السياسي بين انصار/النظام/ وانصار / التقدم / • ويتحدث علماء الاجتماع الاجانب هــم أيضا عن «ثنائية» ليصفوا حقائق الواقع البرازيلية ، مثــــل / لامبير / بين الفرنسيين : البرازيلان : البرازيل التقليدية ، في المناطق الريفية ، والمزارع الواسعة المذهارة، والمدن النائمة، والبرازيل التقدمية، النازعة كليا نحو المستقبل ، مع مصانعها، وعواصمها الجبارة، الضاجة بالناس، مثل ساو باولو وريودي جنيرو • ان الاميركيين الشماليين يميزون بنفس الطريقة، وان كان بعبارات اخرى ، برازيل ناقصة التطور وبرازيــــل زائدة التطور ، وهما متعارضتان بالضرورة ومـــع ذلك متكاملتان ، ذلك لان جزء من البرازيل لا يستطيع ان يتطور الا بشـــرط أن يبقى جزء اخر ، بمثابة احتياطي ، للمواد او لليـد العاملة ، وناقص التطور •

هذا النموذج الثنائي القطب (وكان ينبغي طبعا تسجيـــل الفوارق الطفيفة فيـــه ، لكننا لا نكتب هنا محـــاولة في علم الاجتماع) لا نجــــده فقط عند الاختصاصيين فـــي العلوم الاجتماعية، المندهشين للالتقاء ، في نفس الارض ، لاكبر ثروة تتعايش مع اقصى البؤس ، بل نجده أيضا في الادب، وبصورة

خاصة في شعر / كاسترو ألفيس / . ذلك لان كاسترو ألفيس، كما أشرنا بسرعة في سطور سابقة ، قد انطلق من / فيكتور هيغو / ، وان هذا كان الشاعر الكبير للنقائض : ظلمات واضواء ، ونبلاء هم اشرار، واشرار لديهم ارواح نبلاء . الله والشيطان... لكن كاسترو ألفيس قد استطاع ان ينقل نقائض هيغو الى البرازيل، وذلك بالضبط لان البرازيل التي كان يعيش فيها كانت عالم النقائض بالذات : بيض وزنوج ، وسادة الطاحونة وارقاء المزارع الكبرى ، وتناقض الالوان والاوضاع الاجتماعية ، الذي يجب ان نضيف اليه ان سيد الطاحونة ، القاسي والسادي (المتلذذ بتعذيب غيره) ، كانت لديه روح متوحش في حين ان العبد ، مثل خادم روي بلاس كانت لديه روح سيد كبير ! وانطلاقا من ذلك، من هذه النقيضة الاساسية، قام كاسترو ألفيس بتمديدها في سلسلة كبيرة من النقائض ، كالتعارض بين عفريت الجنوب ، شيطان فخفخة البيض ، الذي يولد من الحرارة الاستوائية ، وجني نعومة الليل الذي هو ميدان حنان الزنوج (كاشويرا دي بولو آفنسو) او ايضا التناقض بين جمال الارض الاميركية ولطخة الرق المخزية (آو روميرو دالفا) وبين الاستقلال السياسي للبرازيل والعمل العبودي في الميدان الاقتصادي (اميريكا) ، وبين لعنة حام وتضحية برديثوس (فوزيس دافريكا ، بروميتو) ، والتناقض بين البحر الحر أبديا ، وسفينة العبيد التي تمخر عبابه مع رجالها المقيدين (أو نافيو نيغريرو) .

واخيرا فان هذا النموذج الثنائي القطب قد استعاده النقد الادبي بدوره . وقد استطاع / ف. موغ / جيدا ان يحدد البرازيل بصفتها ارخبيلا من الجزر الثقافية ، مختلفة جميعها بعضها عن بعض، ومع ذلك بقي ان النزعة العصرية كانت حركة جنوبية ، بارتباط مع نمو الثروة التي جاء بها البن ، وان النزعة الاقليمية كانت حركة شمالية شرقية ، بارتباط مع تدهور قصب السكر ــ وان رواية التحليل النفسي كانت متمركزة في ولايات منياس ، وساو باولو ، والريو ، اي في وسط البلاد ،

بارتباط مع حركة عمران المدن ، والتصنيع وحياة العلاقات ، في حين ان الرواية الطبيعية إلنزعة كانت تنتصر في مناطق الملكيات العقارية الكبيرة ، في ولايات ريسيف ، وباهيا ، او ريو غراندي دو سول ، اي في طرفي العملاق البرازيلي · روايات النواة ، من جهة ، وروايات الاطراف من جهة اخرى ·

لكن هل ان الصحيح (مع جميع الفروقات الطفيفة التي يجب ان ندخلها ، طبعا ، للحصول على صورة اكثر دقة) عن ادب بلد لن يكون كذلك حين ندرس ادب كاتب واحد ؟ وهذا ما نريد ان نصل اليه : في الواقع ان النموذج المزدوج القطب قد طبقه بصورة جيدة المؤرخون والنقاد على اعمال جورج أمادو، حين نوهوا بالحركة البندولية التي تحمل هذه الاعمال تارة نحو الرواية الوثائقية او الاجتماعية (السوسيولوجية) «مع حد ادنى من الادب» (كاكاو) وطورا نحو القصيدة الملحمية البحت (البحر الميت) او ايضا حين يميزون ، في داخل هذه الذبذبات بين نوع وآخر ، فترات الروائع (حيث تتوازن النزعتان وتتناسقان في انسجام) وفترات «التساقطات» ـ ويتعلق الامر بالسقوط في التفرع الثنائي البحت ·

ان النقاد او مؤرخي الادب الذين طبقوا النموذج الثنائي القطب على اعمال جورج أمادو لم يطبقوه على جميع الكتاب الاخرين للادب البرازيلي · وهذا النموذج يصح في الواقع ، احيانا ، ولا يصح دائما · وهذه مسائل انواع او حالات· وقد طبقته ، شخصيا ، في الماضي على اعمال اكبر شاعر زنجي في البرازيل ، الذي لقب بـ «البجعة السوداء» ، وهو / كروز اى سوزا / ، وهذا اللقب الذي اعطي له ، كبجعة ، ولكن بجعة سوداء، يحمل في ذاته كل التباس التناقض بين الصفاء الابيض لغنائه ، ولون بشرته الابنوسية · ان كل اعمال / كروز اي سوزا / متضمنة بين قطب الرمزية المالارمية ، التي هي بياض، واثير وشفافية المرايا ـ وقطب «الزنوجة» ، الذي هو حرارة عضوية ، وايقاع الدم «البربري» او التمام تام «المتوحش» · لكنني في الاستعراض الذي قمت به في ذلك العهد لجميع الكتاب

الافرو ــ برازيليين ، منذ العهد الاستعماري حتى ايامنا ، اذا لم تخني الذاكرة ، لم أطبق النموذج الثنائي القطب الا على / كروز اي سوزا / · وهذا معناه انه لكي يكون هذا النموذج صالحا للتطبيق ، هناك بعض الشروط المطلوبة ، وهي لا يمكن ان تكون ، في رأيي ، سوى شروط الطبيعة الاجتماعية ·

علينا اذن ان نبحث ، نظرا لانه حدث اجماع تقريبا ، حسب ما اعرف، لدى المؤرخين والنقاد ، الاجانب المهتمين بالبرازيل، والبرازيليين،في تطبيق نموذج ثنائي القطب على تحليل اعمال أمادو ــ اذن علينا ان نبحث، كما قلت، عن اسباب هذه الثنائية القطبية ، والبحث عنها في ميدان علم الاجتماع (السوسيولوجيا) · والحال ، فان نفس الاسم الذي اعطي لمدينة سالفادور ، عاصمة ولاية باهيا ، وهو / مدينة جميع القديسين وجميع الخطايا / توحي لنا بأنه اذا كانت اعمال امادو متناقضة، فذلك لان الارض التي يتغنى بها هي كذلك متناقضة· تناقض بين «جميع القديسين» قديسي الكنائس الباروكية وقديسي الكاندونبليهات ، والكنائس القروية الصغيرة والجلسات الروحية ، وبين «جميع الخطايا» ، مع فهم الخطايا لا بوصفها خطايا الفرد ، بل الخطايا الجماعية ، اي جور التنظيم الاجتماعي ، والبؤس الاقصى الى جانب ازدهار اقلية رأسمالية · ويمكن ان نقول اضواء صوفية او شعرية وظلمات اجتماعية ، مع استعادة نقيضه / فيكتور هيغو / الشهيرة · لكن هذا التعارض الاساسي يمتد، في الاتساع والفهم، بسلسلة كاملة اخرى من التعارضات · من حيث الاتساع ، باديء بدء ، حين ننتقل من العاصمة الى سائر الولاية ، مثل ذلك التعارض بين مزرعة الكاكاو الكبيرة والمزرعة الصغيرة التي يزرع فيها التبغ،«تعارض» قصب السكر مع الكاكاو يحل هنا محل تعارض قصب السكر والتبغ كما درسه في كوبا / فرناندو اورتيز / ، بين ارض الساحل السوداء ، والغابة والحياة العضوية والجنسية ، وارض «السيرتاو» الجافة ، في الداخل ، وذات المعادن ، حيث يصبح الرجال حصى ، والاجناس او اعضاء

التناسل نباتات صبار ، ـ بين الحقول التي هي انفتاحات على الكون ، والمصنع الذي هو انغلاق على طبقة ·

ومن حيث التفهم في الدرجة الثانية · ذلك لان هذا التعارض الاساسي ، بين «حاضرة جميع القديسين» و «حاضرة جميع الخطايا» ينقسم في كل من مقولاته الى تعارضات جديدة وتناقضات جديدة · كما لو انه يتوجب ان نضيف الى مبدأ الثنائية القطبية مبدأ تكرار (مع تضاعف كل قطب الى صور في مرآة) ومبدأ تطابق (كل من هذه التعارضات الفرعية ينعكس دائما في مرآة في داخل الاخرى) ومثال ذلك : في قطب «جميع القديسين» تعارض واجهة الكنائس الباروكية في باهيا ، الجزويتية ، البسيطة ، بل والقاسية في عريها المسطح ، وغنى دواخلها، المتوهجة كلها بالذهب، والمحملة بالازهار ، والملائكة، وأكاليل الزهور ، والقديسين ـ هذا الغنى الذي يتكرر او الذي يقابله ، في قطب «جميع الخطايا» التعارض بين عري فرج الخلاسيات ، وهي واجهات سوداء ، وكل الطعم اللذيذ ، من عسل وافاويه ، لداخل هذا الفرج · ومثال اخر : التعارض ، في داخل قطب «جميع القديسين» بين القديسين ، والعذارى ، وملائكة الكاثوليكية والالهة الافريقية ، آلهة العاصفة ، والماء العذب ، والماء المالح ، ورياح العاصفة ، تعارض ـ ولكن ايضا تطابق بما ان كل اله يطابق قديسا كاثوليكيا (٢٢) · ومن جهة «جميع الخطايا» : تعارض بين الرغبة الجنسية والشراهة ، هذا التعارض الرئيسي الذي اوضحه التحليل النفسي بصورة جيدة ، بما ان الانسان الذي يعيش في جوع مزمن ليست لديه وسيلة أخرى لنسيان بؤسه سوى معانقة امرأة ، في حين ان ذلك الذي لا يعرف بهجات الحب يعوض فشله في الشراهة · لكنه تعارض يستجيب ايضا لقانون التطابق، ان وجبات المطبخ البرازيلي الدسمة تتخذ الى هذا الحد او ذاك اسماء جنسية ،

---

(٢٢) في احدى قصص « لويس باستوريس دانواتيه» يدخل اله الحرب الأغريقي اوغون والمحتال الالهي ايكسو في عمادة كاثوليكية ·

والنقود التي يعطيها الاهل لغلمانهم الصغار لكي يذهبـــوا و «يصبحوا رجالا» في السوق العمومي تتخذ اسم «نقود لشراء الحلويات» ٠

وهكذا نفهم ، بسهولة ، ان اعمال جورج امادو ، في هـذا الوسط المزدوج القطب تصبح هي أيضا مزدوجة القطب ٠ وان هذه الاعمال تعكس بصـــورة خاصة هذه الثنائية القطبيـــة الاساسية التي هي قطبية البؤس والشعر ، مع كون ارض باهيا هي في وقت معا ارض البؤس ـ مـــرض الديدان ، والتدرن الرئوي (السل) والجوع المزمن، والاقطاعية الزراعية، وسيطرة طبقة على أخرى ، والمعارك الدامية لاجـل امتلاك الارض بين ارستقراطيتين متزاحمتين ـ وأرض شعر كثيف شاسع الابعاد، وشعر كوني وشعر شعبي ، واعياد الاحاسيس ، والاعيـــاد الجماعية ، في الغناء ، والموسيقى ، والرقص ٠

ونستعيد عنوان الرواية الاولى لكاتبنا الذي يضع نفســه هكذا ، منذالبدء ، جماليا ، تجاه الثنائية القطبية: انه «كرنفال» دائم ينطلق على خلفية من البؤس الدائم ٠ ومن هنـا ، ابتداء من هذا الكتاب الاول ، هذا التأرجح بين الروايـــة الطبيعية ، الوثائقية ، والسوسيولوجية (الاجتماعية) من جهــة ، ـ التي هي تحليل بؤس الانسان ـ والرواية القصيدة، الرواية الملحمة، وهي انبثاق الملحمة ، والغنائية، او السخرية ، الذي يتدفق من العهد المزدوج ، عيد الاحاسيس والعيد الجماعي ٠

لكن هذين القطبين لا ينفصلان ، في حياة الواقع ، وهمـــا ليس بوسعهما ان يكونا سوى تجريدات بناهـــا النقد ، للفهم والتفسير ٠ واريد ان اقول بأن باهيا هي ، من ناحية ملموسة، في وقت معا هذا القطب وذاك ، بؤس وشعر ، البؤس ينتهي في الشعر ، والشعر يعبر عن رد فعل الانسان تجاه البؤس ، لدى هؤلاء المغنين او رواة القصص الشعبية التي قلنا انهم كانوا الاساتذة الحقيقيين لجورج أمادو ٠ وهذا تزامن للتضاد اكثر منه ، بالتالي ، تذبذبا ٠

وليسمح لي هنا بأن اروي نادرة ، وذلك بالضبط لانها تمس

جورج امادو ٠ فقد دعاني اثناء زيارتي الاولى لباهيا ، وكان علي ان اتعرف في وقت معا الى مطبخه وطباخته ٠ ٠ والحال، فان هذه وذاك قد ظهرا لي سريعا بصفتهما رمز هذا التزامن بين العناصر المتعارضة في كل واحد ٠ ذلــك لان السمك الذي قدمه لي كان، في وقت معا، طيبا ولطيفا ، مع حليب جوز الهند، والعسل والسكر ، وكله حرارة مع بهاراته ، وفلفله ، وتوابله المحرقة ، والحال فان كـــل هذه الطيبة وكل هـــذه الحرارة المختلطتين لم تكن تشكل بالنسبة للحلق سوى شهوة واحدة ٠ ان الطباخة الزنجية التي أعدت ذلك السمك ، واحضرته الـــى المائدة ، والتي أراد رب المنزل ان يقدمها لـــي ، كانت في وقت معا خادمة «وابنة آلهة»، فكانت اذن مأخوذة في منظومتين من العلاقات المتبادلة، التي كانت احداهما تخضعها للرجل الابيض والتي تتيح لها السيطرة عليه،بما انه كان يحولها الى «وسيطة» للكلام الخارق ، الذي يصغي اليه الرجل الابيض من باهيـــا باحترام وحـــــب حين لا يكون مشوهـــا بذهنية البورجوازية الصغيرة التي تفضحها روآية / كانكـــــان العوام الذي مات مرتين / ٠

وبسبب هذا التزامن للتناقضات انتقل جورج أمـــادو من التذبذب في اعماله الاولى الى تناسق مرحلة نضجه ٠ وانـــه ابتكر نزعة طبيعية جديدة ، حيث الوصف الاكثر دقة للواقع ، والتحليل الاكثر ماركسية للتناقضات الاجتماعية لاصول نظام الملكية الكبرى للاراضي ، والتصوير الاكثر بكارة لبؤس معين، تتحول الى شعر : في الروايات الاولى ، وهي الاكثـر ريفية ، باجتياح الطبيعة عبر جسد النساء ، النساء ـ المياه ، والنساء اللهب ، والنساء ـ النباتات ، وعبر حركات الرجـال ، الذين يكررون في ملاحمهم او نضالاتهم ، فاجعة (دراما) العناصر ، هيجانات العاصفة او أعاصير البحر٠ او انه أيضا قد اكتشف، بعض الشيء مثلما هو الامر في هايتي ، ولكن بصورة مختلفة، الواقعية المدهشة الرائعة ، مع احاطتها بهالة من «السر» ، مع اطالة الشيء الذي يستحيل قوله ، والذي لا يمكن قوله الا في

الموسيقى – موسيقى نثره شبه المنوم ، لكي يستطيع ان يدخلنا بصورة افضل في المملكة السرية ـ عذاب البشـر الكبير • او انه اخيرا يبتكر في رواياته الاخيرة بعداً جديـداً للسخرية ، بصنعه المهزلة الشعبية الضخمة ، التي تروى على طريقـة الشعب ، أي بصورة ممتازة ، ملحمة جديدة ، وهي ملحمـة الضحك المحرر ، المحرر من جميع الاستلابات الذاتية ، ومـن جميع الاضطهادات الشـاذة ـ ، او بجعله من التهكم طريقة لتحطيم وتدمير الاجزاء المتبلورة ، المتمعدنة ، من المؤسسات الاجتماعية ، لكي يتيح لها استعادة سيولة الحياة • وهكذا فان جورج أمادو، وستكون هذه كلمتي الاخيرة، بتخليه عن الرسالة السياسية لرواياته الاولى ـ مع الخطر الكبيـر الذي تشكله الرسالة السياسية من وجهة النظر الجمالية ـ : السقوط فـي البلاغة البحت ، بل والالاعيب البلاغية (انه لم يعد يكتب الان سوى فصول قصيرة ، ومقاطع محددة دقيقـة ، في اسلوب متقشف جداً) • ويعيـد اكتشاف نمط آخـر من «الواقعية الانتقادية» التي يعرفها الفرنسيون جيداً في رواية / جبـل بلاس /، وهي واقعية الرواية «البيكارية» او «التشردية»، وذلك طبعاً مع اضافته اليها هذه النفحة من الشيء المدهش الرائع الذي يحتفظ به من فترته الاولى □

روجيه باستيد

كانكان العـــوّام الذي مــات مرّتـــين

١

ما تزال الظروف التي احاطت بموت « كانكان العوام » حتى الآن غامضة جدا . وهنــاك شكوك ينبغي تبديدهــا ، وتفاصيل غير معقولة ، وتناقضات في افادات الشهود ، ولا يوجد اي يقين مؤكد بخصوص الساعة ، والمكان ، والاقوال الاخيرة . وتؤكد العائلة ، بتصاب ، مدعومة من قبل جيران ومعارف ، الرواية عن موت هادىء ، في صباح جميــل ، دون شهود ولا ضجة ، وبدون اقوال ، وهو موت حدث قبل زهاء عشرين ساعة من الموت الآخر ، الذي انتشر نبأه وجرى التعليق عليه بعد هبوط ليل غــرق القمر خلاله في امــواج البحر وحيث حدثت وقائع يلفها السر والغموض في عرض مرفا باهيا . ومع ذلك فان اقواله الاخيرة ، التي سمعهــا شهود جديرون بالثقة ، والتي فسرت على طول المنحدرات وحتى في أبعد الأزقة المسدودة ، جرى انتقالها من فم الى آخر ، ذلك لانها كانت تمثل فــي راي هؤلاء الاشخــاص ،

شيئا آخر غير التوديعات البسيطة لهذا العالم : انها شهادة نبوئية ، و « رسالة ذات مضمون عميق » كما يمكن ان يعبر كاتب شاب في زمننا .

هناك طائفة من الشهود الجديرين بالثقة ، في عدادهم يوجد المعلم مانويل ، و « كيتريا ـ ذات ـ العين ـ الجاحظة » ، التي لا تقول قولين ... لكن هناك أشخاصا يرفضون كل صدق ، ليس فقط بالنسبة للاقوال الجديرة بالاعجاب ، بل أيضا في صدد جميع أحداث تلك الليلة التي لا تنسى ، حيث ، في ساعة غير مؤكدة وفي ظروف يمكن أن تكون موضع جدال ، غاص « كانكان العوام » في بحر « باهيا » ورحل في الرحلة الأبدية التي لا يعود منها المرء أبـــدا .

ان العالم هو هكذا ، مأهول بأشخاص متشككين ، ابتلوا بمرض الانكار : فهم مثل ثيران ربطت بالنير ، أولئك الاشخاص التصقوا بالنظام ، وبالقانون ، وبأشكال التصرف المعتادة ، وبالورقة التي تحمل طابعا . انهم يشهرون بصورة ظافرة شهادة الوفاة الموقعة من الطبيب قبيل الظهر ، وبواسطة هذه الورقة البسيطة ـ للسبب الوحيد وهو أنها تتضمن حروفا مطبوعة وطوابع أميرية ـ يحاولون محو الساعات التي عاشها « كانكان العوام » بحيوية شديدة ، حتى رحيله بحرية وتلقائية ، هذا الرحيل الذي قرره هو ، كما يتضح من التصريح الذي أدلى به بصوت عال ومفهوم ، لاصدقائه وللاشخاص الحاضرين .

ان عائلة الميت ـ ابنته المحترمة وصهره الوقور جدا الذي يشغل وظيفة واعدة جدا ؛ والخالة ماروكاس وأخوها

الصغير : التاجر الذي يملك حسابا متواضعا في البنك ـ تؤكد ان كل هذه ليست سوى تخيلات فظة ، وابتكار سكارى عريقين ، وانذال يعيشون على هامش القانون والمجتمع ، ولصوص لا ينبغي أن يعرفوا سوى منظر قضبان السجن وليس حرية الشوارع ، ومرفأ « باهيا » ، وبلاجات الرمل الابيض والليل الشاسع الابعاد ... ويرتكب ، أهل المتوفي ، ظلما وينسبون الى أصدقاء « كانكان » هؤلاء كل مسؤولية الحياة الشقية التي مارسها خلال الأعوام الاخيرة ، حين أصبح كابوس العائلة وعارها ، الى حد أن اسمه لم يكن يلفظ ، وأن اعماله الطائشة لم يكن يجري التعليق عليها بحضور الاولاد ، هذه المخلوقات البريئة الذين كان المأسوف عليه الجد جواكيم بالنسبة لهم قد مات منذ زمن طويل ، بصورة لائقة ، محاطا بتقدير الجميع واحترامهم . وهذا يحملنا على الملاحظة بأنه كان هناك موت أول ، ان لم يكن جسديا فعلى الاقل معنوي ، قبل ذلك ببضع سنوات . وهكذا نصل الى مجموع ثلاث ميتات ، ويجعل هذا من كانكان ضاربا الرقم القياسي في الموت ، انه بطل في الوفاة، ويعطينا الحق في التفكير بأن الاحداث اللاحقة ، ابتداء من تسجيل الوفاة حتى غوصه في البحر ، لم تكن سوى مهزلة قام هو بتركيبها رغبة منه في أن يعذب مرة أخرى حياة أقاربه ، وجعلهم يقرفون الحياة بتلطيخهم بالعار وتسليمهم لخنازير الشارع . انه لم يكن محترما ولا محتشما ، رغم الاحترام الذي كان يكنه شركاؤه لمقامر يحسدونه على حظه، ولشارب « التافيا » (١) الذي لا يرتوي ابدا ، والمحدث

---

(١) تافيا : شراب مسكر .

الذي لا ينضب معينه .

ولست ادري ما اذا كان سر الموت هـذا (أو عمليات الموت المتعاقبة) التي مر بها « كانكان العوام » ، يمكن ايضاحها كليا . لكنني سأحاول ذلك ، بناء لنصيحته هو نفسه ، ذلك لان المهم هو المحاولة ، حتى ولو كنا نحاول المستحيل .

٢

ان الانذال الذين كانوا يروون ، على طـول الشـوارع والمخدرات ، أمام سـوق « آغوا دوس مرينوس » اللحظات الاخيرة « لكانكان » (بل كراسا من الاشعـار الشعبية قـد جرى تأليفه حول هذا الموضوع مـن قبـل الشاعر المرتجل « كويكا دي سانتو امارو » وبيع برواج كبير) كانوا يهينون على هذا النحو ذكرى الميت ، حسب قول العائلة . وذكرى الميت هي ، كما يعرف الجميع ، شيء مقـدس لا ينبغي ان تلطخه افواه السكيرين القذرة والمقامرين وتجار الحشيش . وكان مما لا يمكن القبول به أن تكون هذه الذكرى موحيـة للقوافي الفقيرة للمغنين الشعبيين قرب مصعد « لاسيروا » الذي كان يمر به كثير من الناس الطيبين ، وبصورة خاصة زملاء مكتب ليوناردو باريتو ، صهر « كانكان » المهان . ومـا أن يموت شخص ، حتى يستعيد اصدق احترام ، حتى ولو كان قد قام بأعمال جنونية في حياته . ان المـوت ، الـذي

ينشر الغياب ، يمحو لطخات الماضي ، وتتلألأ ذكرى المرحوم تلألؤ الماس . هذه هي فكرة العائلة ، التي يوافق عليها الجيران والأصدقاء . وحسب أقوالهم ، فان «كانكان العوام» كان قد عاد مجددا لدى موته ، ليصبح هذا المحترم والموقر « جواكيم سواريس داكانها » ، المنبثق من عائلة طيبة ، وهو موظف نموذجي في دائرة الضرائب ، وذو الخطوة الموزونة والوجه المحلوق جيدا ، واللابس سترة سوداء من جلد الالبكة ، وتحت ابطه محفظة ، وهو يصغي اليه جيرانه باحترام ؛ حين يعطي رأيه عن الطقس وعن السياسة ، والذي لم يسبق لاحد ابدأ ان رآه في حانة ، وهو لا يذوق خمرة التافيا الا في منزله ، وباعتدال ، والحقيقة ان العائلة توصلت ، بجهد جدير بأعظم آيات المديح ، منذ بضع سنوات لجعل ذكرى « كانكان » تتلألأ ، دون أن تبهتها لطخة واحدة، باعلان انه مات في سبيل المجتمع . وكان يجري الحديث بصيغة الماضي حين كان يجري الاستشهاد « بكانكان » ، بدافع من الظروف القاهرة . ولكن لسوء الحظ فان أحد الجيران ، أو زميلا لليوناردو أو صديقة ثرثارة لفاندا (ابنة « كانكان » التي كانت تشعر بالخجل) تلتقي بين وقت وآخر « بكانكان » ، أو تصلها منه انباء عن طريق اشخاص وسطاء . وكان ذلك كأنما أحد الموتى قد انتصب على قبره لتلطيخ ذكراه هو نفسه : وهو أن يعلم الاهل بأنه سكران في الشمس ، في ابان الظهيرة ، على مقربة من منحدر السوق او في باحة كنيسة « بيلار » ، عاكفا فوق لعبة من الاوراق القذرة ، او ايضا على درجات « ساو ميغيل » مغنيا بصوت مبحوح مطوقا بذراعيه زنجيات أو خلاسيات سيئات الاخلاق،

ويا للفظاعة !

وحين جاء أخيرا ، في ذلك الصباح ، بائـع للتماثيـل الدينيـة لديه محل على درجات « التابوواو » ، بهيئة حزينة الى المنزل المتواضع ولكن المرتب جيدا لعائلة « باريتو » ليعلن لفانـدا ، ابنة « كانكـان » ، ولليوناردو ، صهـره ، بأن « كانكان » قد ادار عينه نهائيا ومات في الكوخ البائس لبائع التماثيل ، ارتفعت في وقت واحد تنهدة ارتياح مـن صدر الزوجين . ومن الآن فصاعـدا فان ذكـرى موظف دائـرة الضرائب المتقاعد لن تعكر بعد اليوم او تجرجر في الوحل عن طريق اعمال طائشة المتشرد كما اصبح في نهاية حياته . ان وقت الراحة المستحقة قد ازف . واصبح بالامكان الآن ان يجري الكلام بكل حرية عن «جواكيم سواريس دا كونها»، وامتداح سلوكه كموظف وكزوج وكوالد وكمواطن ، وتعداد فضائله الاطفال بصفته نموذجا وقدوة ، وتعليمهم أن يحبوا ذكرى جدهم دون أن يخشوا اية مماكسة .

لقد انطلق بائع التماثيل الدينية ، وهو عجوز ناحـل الجسم له شعر أبيض مجعد ، في ذكـر التفاصيـل : ان زنجيـة بائعـة « للمانفـاو » (١) ، و « الأكاراجيـه » (٢) و « الابارا » (٢) ، وغيرها من الاطايب ، كانت لديها في ذلك الصباح مسألة مهمة تريد أن تعالجها مع « كانكان » . لقد

---

(١) المانفاو : عصيدة من دقيق المانيهوت .

(٢) اكاراجيه وابارا : مآكل على اساس هريسة الفاصوليا ومضافا اليها التوابل والمطبوخة زيت النخيل .

وعدها بان يحصل لها على بعض الأعشاب التي يصعب العثور عليها والتي لا غنى عنها لطقوس « الكاندونبليه » (٣). وقد جاءت الزنجية للبحث عن الاعشاب التي لها بها حاجة ملحة في ذلك الميعاد المقدس لاعياد « الكسانفو » (٤) . وكما هي العادة دائما ، كان باب الفرفة مفتوحا ، في أعلى الدرج المسلط . ومنذ وقت طويل ، كان « كانكان » قد فقد المفتاح الضخم الذي عمرهماية سنة . ويروى من جهة اخرى انه قد باع هذا المفتاح في يوم من أيام الجوع بعد أن ارهقه النحس ، لبعض السواح حائكا حوله قصة ملأى بالتواريخ والتفاصيل التي جعل فيها هذا المفتاح ، المفتاح المبارك لاحدى الكنائس . ونادت الزنجية ولم تحصل على جواب . وظنته نائما فدفعت الباب . كان « كانكان » يبتسم ممددا على سريره الحقير الذي كان شرشفه أسود من القذارة ، وكان غطاء ممزق ملقى على ساقيه . كانت ابتسامته مرحبة كما هي في العادة ، ولم تلاحظ الزنجية شيئا . وقد سألته عن الاعشاب الموعودة : استمر بالابتسام، دون أن يجيب . وكان ابهام رجله الاكبر يخرج من ثقب جوربه وكان حذاؤه المثقوب موضوعا على الارض . وقد جلست الزنجية ، وهي صديقة حميمة « لكانكان » ومعتادة على مزاحه ونكاته ، على السرير وقالت له بأنها مستعجلة . ودهشت لانها لم تره يمد يده العابثة المسارعة دوما للقرص

---

(٣) الكاندونبليه : احتفالات العبادة الافرو ــ برازيلية .

(٤) الكسانفو : هي في بعض العبادات الافرو ــ برازيلية ، الهة (اوريسكا) البروق والرعد .

او للمداعبة . ونظرت مجددا الى الباهم الاكبر لرجله اليمنى ووجدت كل ذلك غريبا . ولمست جسم « كانكان » ، ونهضت وقد مسها طرف من جنون ثم امسكت بيده الباردة. وهبطت على الدرج راكضة ونشرت النبأ .

كانت الابنة والصهر يصغيان بلا سرور الى جميع هذه التفاصيل ... الزنجية والاعشاب ، والمداعبات والكاندونبليه .. وكانا يهزان راسيهما لرواية بائع التماثيل الدينية ، وهو رجل هادىء يحب رواية قصته مع أدنى تفاصيلها ، وكأنهما يلحان عليه لكي ينتهي ، وكان الوحيد الذي يعرف وجود عائلة « كانكان » ، حسب الاعترافات التي ادلى بها له هذا الاخير اثناء ليلة عامرة من شرب الخمرة . ولهذا السبب أستطاع ان يأتي . وكان يتخذ هيئة الحزن الشديد ليقدم لهما « تعازيه المخلصة » .

كان ذلك في موعد ذهاب ليوناردو الى المكتب . وقال لزوجته : ستذهبين انت ، وانا سأغدو الى المكتب ولن اتأخر في العودة . ويجب ان اسجل حضوري . وسأتحدث بذلك الى المدير ...

وادخلا بائع التماثيل الدينية وقدما له كرسيا في الصالون . وذهبت فاندا لتغير ثوبها . وكان البائع يتحدث عن « كانكان » الى ليوناردو ... كان الجميع يحبونه في منحدر تابور ، فلأي سبب انزلق « كانكان » ، الى حياة التشرد هذه ، وهو الرجل الذي ينتمي الى عائلة جيدة ويملك بعض الاموال ، وذلك ما كان البائع يستطيع ان يحكم به وهو يسر بالتعرف الى الابنة والصهر ؟ فهل لقي المرحوم

معاكسة مـا ؟ هكذا كان الامر ولا شك . او ربما أن زوجته قد ركبت له قرونا ؟ هذه أشياء كثيرا ما تحدث ... كـان البائع يسند جبهته بسبابتيه لكي يدعـم استجوابه بهـذه الحركة المبتذلة . فهل حزر ؟

ـ لقد كانت دونا أوتاسيليا ، حماتي ، امراة قديسة !

حك بائع التماثيل الدينية ذقنه ... اذن لماذا ؟ لكـن ليوناردو لم يجب ، وذهب للانضمام الى فاندا التي كانـت تناديه من غرفتها .

ـ يجب أن نبلغ ذلك .

ـ لمن نبلغ ؟ ولماذا ؟

ـ للخالة ماروكاس وللعم ادواردو ، وللجيران . يجب الدعوة للدفن ..

ـ ولماذا نبلغ الامر فورا للجيران ؟ سنقول لهم فيمـا بعد ، والا فستكون هناك ثرثرات هائلة !

ـ ولكن الخالة ماروكاس ...

ـ سأذهب اليها ، وكذلك الى ادواردو ... بعـد أن اذهب الى المكتب . اسرعي ، والا فان العم الذي جاء يحمل النبأ سيذيعه في كل مكان ...

ـ من الذي كان ينتظر هذا ... أن يموت « كانكان » هكذا ، دون أحد الى جانبه ...

ـ وهذه غلطة من ؟ انها غلطتـه وحـده ... هـذا المجنـون .

في الصالون كان بائع التماثيل الدينية يتأمل باعجاب

صورة ملونة « لكانكان » ، وهي صورة قديمة تعود الى زهاء خمسة عشر عاما ، وهي تمثل سيدا حسن الزي ، مع قبة منشاة ، وعقدة رقبة سوداء ، وشاربين مروسين ، وشعر ملمع ووجنتين ورديتين . والى جانب هذه الصورة ، في اطار مماثل ، كانت العين المتهمة والثغر القاسي ، انها دونا اوتاسيليا في ثوب أسود بالدانتيلا . وقد راح بائع التماثيل الدينية يدرس هذه الهيئة المشاكسة .

ـ لا يبدو عليها انها يمكن أن تخون زوجها . . . وبالمقابل ، كانت ولا شك عظمة صلبة من الصعب نهشها ... امرأة قديسة ؟ لا اعتقد ذلك ...

٣

كان بعض الأشخاص القلائل ، وهم من أهل « منحدر السوق » ، يتفرسون في الجثة حين وصلت فاندا . وقد نبههم بائع التماثيل الدينية بصوت منخفض :

ـ انها ابنته . ان لديه بنتا ، وصهرا ، وأخا وأختا . وهم اشخاص متميزون . أشخاص ذوات . والصهر موظف ، وهو يسكن في « ايتاباجيب » منزلا من الدرجة الاولى ...

وابتعد اولئك الاشخاص متيحين لها المرور ، يحدوهم الفضول لرؤيتها ترتمي على الجثة ، تقبلها ، وتنهمر دموعها انهمارا ، وربما تصرخ مولولة ايضا . وعلى سريره الحقير ، كان « كانكان العوام » ، ببنطاله القديم المرقع ، وقميصه الممزق ، وكنزته الكبيرة القذرة ، يبتسم وكأن كل هذا كان يمتعه . وكانت فاندا ، وقد وقفت ساكتة بلا حراك ، تنظر طويلا الى الوجه غير الحليق ، واليدين القذرتين ، وابهام

الرجل الضخم الخارج من ثقب الجورب. انها لم يعد بوسعها أن تسفح ألدموع ولا ان تملأ الغرفة بنحيبها . فقد بدت هذه الدموع بصورة خاسرة تماما حين اخذ « كانكان » يرتكب اعماله الجنونية ، وانها حاولت مرارا عديدة ان تعيده الى بيت الأسرة . والآن ، اكتفت بالنظر اليه ، ووجهها يحمر خجلا .

كان ميتا عديم اللياقة ، لا يمكن مقابلة أحد به ، وجثة متشرد مات مصادفة دون احترام ولا وقار . وكان يضحك بوقاحة ساخرا بها ، وبليوناردو . وكذلك بسائر افراد العائلة . انها جثة جديرة بالالقاء على المشرحة لكي تنقل في شاحنة الشرطة نحو كلية الطب ، لكي تستخدم اثر ذلك في الاعمال التطبيقية للطلبة ، قبل ان تدفن في النهاية في حفرة بسيطة بدون صليب ولا شاهدة مسطورة . كانت هذه جثة « كانكان العوام » ، سكير التافيا ، الخليع والمقامر غير التائب ، بلا عائلة ، ولا منزل ، وبدون ازهار ولا صلوات . ولم يكن ذلك هو « جواكيم سواريس داكونها » ، الموظف الفذ في دائرة الضرائب ، الذي أحيل الى التقاعد بعد خمسة وعشرين عاما من الخدمات ألجيدة والمخلصة ، والزوج النموذجي الذي كان الجميع يخلعون قبعاتهم أمامه ويشدون على يده . فكيف امكن ان يتخلى والدها، وهو في الخمسين من العمر ، عن العائلة ، وعن بيته ، وعادات عمر كامل ، وعن معارفه القدامى ليذهب للتسكع في الطرقات ، ويحتسي الخمرة في حانات قذرة ، ويعاشر المومسات ، والعيش في قذارة ودون حلاقة ، وان يسكن في كوخ مزر وينام على هذا السرير البائس الحقير ؟ لم يكن باستطاعة

فاندا ان تفسر ذلك . وكثيرا ما كانت فاندا ، في الليل ، بعد وفاة امها اوتاسيليا ـ حتى في هذه المناسبة المهيبة لم يقبل « كانكان » بالعودة الى اهله ـ تناقش ذلك مع زوجها . لم يكن ذلك جنونا ، على الاقل جنون يستحق مستشفى المجانين ! وقد أجمع الاطباء على هذه النقطة . أذن ، كيف يمكن تفسير المسألة ؟

ومع ذلك ، فان هذا الكابوس لكل هذه السنين، وهذه الاهانة لكرامة العائلة ، كل هذا قد انتهى الآن ، كانت فاندا قد اخذت عن أمها حسا عمليا معينا ، مرفقا بالقدرة على اتخاذ قرارات بسرعة ، ووضعها قيد التنفيذ . وهي في الوقت نفسه الذي تنظر فيه الى الميت ، هذه الصورة الكاريكاتورية المزعجة لذلك الذي كان اباها ، كانت تقرر التدابير الواجب اتخاذها . باديء بدء يجب دعوة الطبيب للحصول على شهادة الوفاة . ثم الباس الجثة ثيابا لائقة ، ونقلها الى المنزل ؛ ودفنها الى جانب أوتاسيليا ... وهو دفن لا ينبغي ان يكون غاليا جدا لان الايام كانت صعبة ، لكنه يجب أن لا يحدث تأثيرا سيئا لدى الجيران ، والمعارف، وزملاء ليوناردو . وأن الخالة ماروكاس والعم ادواردو سيساعدانهما . وفي الوقت نفسه ، وعيناها مثبتتان على وجه « كانكان » الباسم ، فكرت فاندا في مصير تقاعد والدها . فهل سوف يستفيدان منه أو أنهما لن يتلقيا سوى جعالة شركة التأمين ؟ ربما كان ليوناردو على معرفة بذلك .

والتفتت نحو الفضوليين الذين كانوا ما يزالون يتفحصونها . كانوا من بسطاء الناس ، من رواد الحانات الحقيرة ، ومن حثالة الاوباش الذين كان « كانكان العوام »

يقدر صحبتهم . فماذا كانوا يفعلون هنا ؟ انهم لم يكونوا يفهمون ان « كانكان العوام » قد انتهى من الوجود بلفظه آخر انفاسه ؟ وأنه لم يكن سوى ابتكار للشيطان ، وحلم رديء وكابوس . ان « جواكيم سواريس داكونها » سيعود للالتقاء فترة بأهله ، في رفاه منزل محترم ، وقد استعاد احترامه. ان ساعة هذه العودة قد ازفت ، وهذه المرة لم يعد «كانكان» يستطيع أن يضحك تحت انف ابنته وصهره ، وأن يرسلهما لزراعة الملفوف ، أو أن يوجه اليهما اشارة وداع ساخرة ويرحل وهو يصفر . كان ممددا ، بلا حراك ولا انفاس ، على سريره الحقير . ان « كانكان العوام » قد كف عن الوجود .

رفعت فاندا راسها ، وأجالت نظرة ظافرة على الحضور ، وامرت بهذا الصوت الذي أخذته عن اوتاسيليا :

ـ هل تريدون شيئا ؟ ان كنتم لا تريدون شيئا بامكانكم أن تخرجوا .

ثم توجهت الى بائع التماثيل الدينية :

ـ هل تسمح بالذهاب لاحضار طبيب ؟

اشار الرجل الطيب أن « نعم » باحناءة من راسه : لقد كان متاثرا ، وراح الآخرون ينسحبون ببطء . وبقيت فاندا وحيدة مع الجثة . كان « كانكان العوام » يبتسم ، والباهم الضخم لقدمه اليمنى بدأ وكأنه نابت من ثقب جوربه .

٤

بحثت عن شيء تجلس عليه . ولم يكن يوجد ، بالاضافة الى السرير ، سوى صفيحة للنفط فارغة . رفعتها فاندا ، ونفخت الغبار ، وجلست ، بعد كم من الوقت سيكون الطبيب هنا ؟ وليوناردو ؟ وتخيلت زوجها وهو يقوم بحركات كثيرة في المكتب ليشرح المدير الموت المباغت لعمه. وقد عرف مدير ليوناردو جواكيم الاعوام العاقلة ، حين كان يعمل في دائرة تحصيل الضرائب . وكيف يمكن لاولئك الذين عرفوه حينئذ وأعربوا له عن تقديرهم أن يتصوروا مصيره ؟ وكان على ليوناردو ان يجتاز لحظة صعبة مرهقة لدى تعليقه مع مديره على أعمال العجوز الشاذة ، وسعي ليوناردو لتفسيرها . والأسوأ سيكون انتشار النبأ بين الزملاء ، موشوشا من طاولة الى اخرى وراسما على الافواه ابتسامات خبيثة ، ومالئا الافواه بنكات فظة او بتعليقات ذات ذوق رديء . هذا الاب كان صليبا للحمل ؛ لقد حول

حياتهما الى ارهاق فظيع وصلب ! لقد وصلا الى قمة التل ، ويكفي الآن التحلي بقليل من الصبر . واخذت فاندا تتفرس في الميت من زاوية عينها . كان ما يزال يبتسم ، وكأنه وجد كل هذا باعثا على الضحك .

انه لخطيئة الغضب ضد ميت ، لا سيما اذا كان هذا الميت هو ابوك . وتمالكت فاندا نفسها ، ذلك لانها تقية وترتاد كنيسة بونفيم ؛ وكانت روحية أيضا ، وتؤمن بالتقمص . ومن جهة آخرى ، فان ابتسامة « كانكان » لم تعد لها أهمية كبيرة . وأخيرا ، فانها هي التي تأمر ، وعما قريب سيعود « كانكان » ليصبح « جواكان سواريس داكونها » الطيب ، المواطن الذي لا غبار عليه .

وعاد بائع التماثيل الدينية مصحوبا بالطبيب ، وهو شاب فتي ، ولا شك انه متخرج منذ وقت قليل من الجامعة ، ذلك لانه كان يجهد ليلعب دور المحترف الكفؤ . ودل البائع على الميت ، وحيا الطبيب فاندا ، وفتح محفظته الجلدية اللامعة . ونهضت فاندا ودفعت صفيحة النفط .

ــ بأي شيء مات ؟

وقام بائع التماثيل الدينية بالايضاح :

ــ لقد عثر عليه ميتا ، كما هو . . .

ــ هل كان يشكو مرضا ما ؟

ــ لست اعلم شيئا ، يا سيدي . انني اعرفه منذ عشر سنوات ، وقد رايته دائما متين البنية كالثور . هذا الا اذا كنت يا دكتور . . .

ــ مــاذا ؟

ـ ... الا اذا كنتم تسـمون خمرة التافيـا مرضـا .
كان يرفع مرفقه قليلا ؛ وكان يحتسي كؤوسـا جيـدة .
وسعلت فاندا ، مستاءة . ووجه الدكتور الحديث أليها :

ـ هل كان أحد خدمك ، يا سيدتي ؟

لحظة وجيزة من الصمت الثقيل ، ثم بصوت قادم من بعيـد :

ـ كان أبي .

الطبيب الشاب الذي ما زال بدون تجربة في الحيـاة قاس فاندا بنظره ، وكان لاغبار عليها ، بثوبهـا المخصص لايام العيد وكعبيها العاليين ، ثم راح يتأمل في فقر الميت الهائل وبؤس الغرفة الفظيع .

ـ هل كان يسـكن هنا ؟

ـ لقد فعلنا كل شيء لحمله على العودة الى البيت .. لقـد كان ...

ـ معتوهـا ؟

رفعت فاندا ذراعيها قليلا ؛ وكانت بهـا رغبـة فـي البكاء . ولم يلح الطبيب . وجلس على طرف السرير وبدأ فحص الميت ، ورفع راسـه وقال :

ـ انظروا كيف يضحك ! انها مهزلة شخص خليع .

أغمضت فاندا عينيها وشدت قبضتيها ، حمراء مـن الخجـل .

٥

لم يستمر مجلس العائلة زمنا طويلا . وجرت المناقشة في مطعم « بايكسادو ساباتيرو » . وكان يقوم بالضبط تجاه دار للسينما . وفي الشارع كان يتجول جمهور مبتهج ومستعجل . وجرى تسليم الجثة الى العناية الجيدة لمؤسسة لدفن الموتى يديرها صديق للعم ادواردو . عشرون بالماية بمثابة حسم !

واخذ العم ادواردو يقدم إيضاحات .

ـ أن ما هو غال حقا ، هو التابوت ، وكذلك سيارات الركاب اذا كان هناك كثير من الناس . ويجب أن تنفق في ذلك ثروة ! وهكذا ففي ايامنا لم يعد باستطاعة الشخص حتى أن يموت .

ومن على مقربة من هناك أشتروا بذلة جديدة سوداء اللون (لم تكن القماشة تساوي شيئا ، لكنها ، كما قال

العم ادواردو ، كانت اجمل من أن تأكلها الديدان) ، كما اشتروا زوجا لحذاء اسود ايضا ، وقميصا ابيض ، وعقدة رقبة وزوجا من الجوارب . ولا حاجة للسروال الداخلي القصير . وكان ادواردو يسجل كل نفقة على دفتر صغير . وكان سيدا في التوفير ، ولديه دكان مزدهر .

وبين ايدي الاختصاصيين من شركة دفن الموتى ، عاد « كانكان العوام » ليصبح من جديد « جواكيم سواريس داكونها » ، في حين كان اهله الأقربون يأكلون حساء السمك في مطعم مع التداول بشأن الدفن . ولم يكن هناك نقاش بمعنى الكلمة الا حول نقطة تفصيلية : اين توضع الجثة .

وفكرت فاندا في الدعوة لحمل الجثة الى البيت ، واقامة السهرة على الرفات في الصالون حيث تقدم طوال الليل القهوة والمشروبات والحلويات الصغيرة للاشخاص الحاضرين . وسوف يستدعي الأب روك لتلاوة صلوات الموتى . وسيجري الدفن في الصباح الباكر لكي يتمكن كثير من الناس من المجيء ، وبصورة خاصة زملاء المكتب ، والمعارف القدماء ، واصدقاء العائلة . وقد عارض ليوناردو ذلك . ولماذا نقوم بنقل المرحوم الى المنزل ؟ ولماذا نستدعي الجيران والاصدقاء ، وازعاج جماعة كبيرة من الناس ؟ ولن يفيد هذا سوى كذريعة للتذكر بأعمال المرحوم الشاذة ، وحياته التي لا يمكن الاعتراف بها ، خلال الاعوام الاخيرة ، ونشر عار العائلة تحت انظار الجميع ! وهذا ما حدث في نفس الصباح في المكتب . ولم يجر الحديث عن أي شيء آخر . وكان كل واحد يعرف قصة عن « كانكان » ، وقد راح يرويها ضاحكا مقهقها . ولم يكن ليوناردو يتصور ابدا

ان عمه قد استطاع ان يفعل كل هذه الأعمال الطائشة . وهي تجعل الشعر يقف على الرأس ! وهذا كله دون ان يؤخذ في الحسبان ان العديد من هؤلاء الاشخاص قد اعتقدوا حتى الان بأن « كانكان » قد مات ودفن ، أو انه كان يعيش في مكان ما من اعماق ولاية باهيا . والأولاد ؟ لقد كانوا يجلون ذكرى جد مثالي يرتاح في السلم المقدس للرب ، وها أن ذويهم يصلون بغتة مع جثة متشرد تحت ابطهم لالقائه في وجه هؤلاء المساكين الابرياء! وهذا دون الحديث عن الفوضى والضوضاء ، والنفقات الاضافية ، وكأنه لا يكفي الدفن ، والبذلة الجديدة وزوج الاحذية . انه هو ، ليوناردو ، كان بحاجة الى زوج من الاحذية ، ومع ذلك فقد أصلح حذاءه البالي تماما ، بدافع التوفير . والآن ، مع كل هذه النقود الملقاة من النافذة ، كم يلزمه من الوقت للحصول على حذاء جديد ؟

وكانت الخالة ماروكاس الضخمة ، مع ابداء متعتها الهائلة بحساء السمك في المطعم ، كانت تعبر عن نفس الراي :

ــ الافضل ان نروّج الاشاعة بأنه مات في داخل الولاية واننا قد تلقينا برقية بهذا النبأ . ثم يدعى الناس الى قداس التساعية . وسيحضر هذا القداس كل من شاء ، وهكذا نوفر نفقات نقل الموكب .

ورفعت فاندا شوكتها :

ــ رغم كل ما فعل ، فانه ابي . ولا اريد ان يدفن مثل متشرد . ولو كان هو ابوك انت ، يا ليوناردو ، هل كنت

تسرّ لدفنه على هذا النحو ؟

لم يكن العم ادواردو يحب بذل العواطف :

ــ ترى هل كان الا متشرداً ، ومن اسوأ أنواع المتشردين الذين عرفتهم باهيا ؟ ولن استطيع ان أنفي ذلك فقط لانه اخي ! ...

وتجشأت الخالة ماروكاس لان معدتها كانت ملأى وقلبها بفيض :

ــ يا لجواكيم المسكين ... لقد كان رجلا طيبا جدا . ولم يكن ابدا سيء النية . لقد كان يحب هذه الحياة ، حياة التشرد ، .. وهذا قدر كل شخص ! ومنذ ان كان صغيرا ، كان على هذه الحال . هل تذكر يا ادواردو ؟ ومرة قد اراد الذهاب مع سيرك . وقد تلقى قتلة تسلخ الجلد ... واطمت ماروكاس لطمة على فخذ فاندا الجالسة الى جانبها، وكأنما تطلب منها أن تسامحها . « لقد كانت أمك ، يا عزيزتي ، متسلطة بعض الشيء . وفي أحد الايام فر الغلام الى الحقول . وقد قال لي انه يريد أن يكون حرا مثل طائر . والمؤكد انه كان مضحكا » .

ولكن لم يجد أحد ان ذلك مضحك . وقطبت فاندا ، وعادت الى الهجوم .

ــ انني لا أدافع عنه . لقد سبب كثيرا من الآلام لماما التي كانت امرأة شريفة !... وانا بالتالي ؟ دون الحديث عن ليوناردو ! ولكن ليس هذا سببا للسماح بدفنه مثل كلب بلا صاحب . وماذا سيقول الناس حين سيعلمون بذلك ؟ وقبل ان يضل سبيله ، كان شخصا محترما . ويجب ان يدفن كما ينبغي .

واطلق ليوناردو نحوها نظرة متوسلة . وكان يعلم انه لا فائدة من النقاش مع فاندا ، وانها تنتهي دائما الى فرض وجهات نظرها وارادتها . وفي الماضي ، كانت أوتاسيليا تفعل نفس الشيء مع جواكيم حتى جاء اليوم الذي ترك فيه جواكيم المنزل وفر هاربا . وليس هناك وسيلة لفعل شيء آخر : سوف تجر الجثة الى المنزل ، وسيجري ابلاغ النبأ الى الاصدقاء والمعارف ، وسيستدعى الناس بالهاتف ، وسنقضي ليلة ساهرة لنسمع رواية كثير من الاشياء عن « كانكان » ساعة تشييع الجسد . هذا العم قد سمم حياته ، هو ليوناردو ، وسبب له اكبر المضايقات . وكان ليوناردو يعيش في خوف من أن يعلم شيئا جديدا عن « جواكيم » هذا ، ومن أن يتصفح جريدة ليجد فيها اعلان اعتقال « كانكان » بسبب التشرد ، كما حدث ذلك مرة . وكان يفضل أن لا يتذكر اليوم الذي ارتاد فيه ، بالحاح من فاندا ، مراكز الشرطة ، وكان أحدها يرسله الى الآخر ، ليكتشف في النهاية « كانكان » في قبو السجن المركزي ، حافي القدمين وبالسراويل الداخلية ، وهو يلعب بهدوء الورق مع لصوص ونشالين . وبعد هذا كله ، وفي الوقت الذي أمل بأن باستطاعته أن يتنفس ، ها ان عليه أن يتحمل هذه الجثة طوال نهار وليلة بطولهما . . . وفي منزله فوق هذا كله ! لكن ادواردو لم يكن موافقا ، هو ايضا . وكان رأيه له وزنه ، ذلك لانه رضي بالاضطلاع بجزء من نفقات الدفن .

ـ كل هذا هو جميل جدا ، يا فاندا . . . فليدفن مثل مسيحي جيد ، مع خوري ، وبذلة جديدة ، واكاليل من الزهر . انه لم يستحق هذا كله ، لكنه اخيرا هو أبوك . .

وهو أخي ... وهذا كله جميل جـدا ، ولكن لمـاذا نحشر المرحوم في المنزل ؟

ـ أجل ! لماذا ؟

هكذا ردد ليوناردو مثل صدى .

ـ ... لماذا نزعـج كومة مـن الناس ، وأن نضطـر لاستئجار سبع أو ثماني سيارات ركاب ، لتشييع الرفات ! وهل تعرفين كم تكلفنا كل سيارة ؟ ونقل الجثة من «التابوا» حتى « ايتاباجيب » ؟ ذلك سيكلف ثروة . ولماذا لا يجري السهر على الميت في مكانه ؟ ونحـن سنرافقه ، وتكفينـا سيارة . ثم ، اذا كنت تحرصين على ذلك ، فسندعو الناس الى قداس التـاسعـة .

ـ اعلن اذن أنه مات في داخل الولاية !

وكانت الخالة ماروكاس متمسكة باقتراحها .

ـ هذا ممكن تماما ، ولماذا لا ؟

ـ ومن الذي سيسهر على الجسد ؟

ـ ونحن اذن ؟ وهل نحن نحتاج الى آخرين ؟

وانتهى الامر بفاندا الى الرضوخ . وكانت تفكر في أن فكرة نقل الجثة الى المنزل هي فكرة عبثية . ولن يؤدي ذلك الا للعمل ، مع النفقات والمتاعب . والافضل دفن «كانكان» بأتم تكتم ممكن ، ثم يعلن النبأ للاصدقاء مع دعوتهم الـى قداس التـاسعية، وهكذا تقرر . وطلبوا الفاكهة بعد الطعام. وفي الجوار ، كان مكبر للصوت ينهق مبينا فوائـد خطـة لمبيعات شركة عقارية .

٦

عاد العم ادواردو الى دكانه ؛ ولم يكن باستطاعته أن يتركها تحت رحمة مستخدميه الانذال . ووعدت الخالة ماروكاس بالعودة فيما بعد لاجل السهرة : كان ينبغي أن تمر على منزلها حيث تركت كل اعمالها المنزلية في تعجلها لتسقط الانباء . وكان ليوناردو ، تلبية لنصائح فاندا ، سيستفيد من عطلة بعد الظهر للذهاب الى مقر الشركة العقارية لكي يتفاوض حول موضوع أرض سيشتريانها بالتقسيط . وسيأتي يوم ، حيث سيكون لهما ، بمعونة الله ، منزلهما الخاص .

لقد قرروا أن يسهروا على الميت بالدور : فاندا وماروكاس بعد الظهر ؛ وليوناردو والعم ادواردو اثناء الليل . ولن تتجرأ اية سيدة على الظهور في الليل عند « منحدر تابوواو » ، وهو مكان سيء السمعة يرتاده المجرمون والمومسات . وفي صباح اليوم التالي ، ستجتمع العائلة

بكاملها لاجل الدفن .

وهكذا عادت فاندا ، في فترة بعد الظهر ، وحدها ، الى أمام جثة والدها . وكانت ضوضاء حياة معوزة وكثيفة تملأ المنحدر من طرف الى طرف ، تصل بصعوبة الى الطبقة الثالثة من المبنى القذر حيث كان الميت يرتاح من عناء زينته .

اقد كان رجال شركة دفن الموتى يعرفون جيدا أسرار مهنتهم : لقد حققوا عملا جيدا . ان بائع التماثيل الدينية الذي ظهر ايرى كيف تسير الامور كان على حق حينما هتف « كأن هذا الميت هو شخص آخر » كان الميت حسن التمشيط ، وقد حلقت ذقنه حديثا ، وهو يرتدي بذلة سوداء مع قميص ابيض وعقدة رقبة وحذاء جديدين ، كان هذا هو حقا « جواكيم سواريس داكونها » الذي يرقد في النعش ـ وهو نعش ملوكي ـ كما لاحظت فاندا بارتياح ، مجهز بمقابض مذهبة وزخارف على جوانبه . اقد أعدوا بواسطة الواح خشبية موضوعة على حوامل (سقالة) طاولة وضع عليها النعش ، فبدا نبيلا وصارما . وكانت شمعتان هائلتان ، « مثل شموع الكنيسة » هكذا فكرت فاندا وملؤها الفخار ـ تلقيان ضوءا ضعيفا لان نورا باهيا كان يدخل على وسع النافذة ويملأ الغرفة بالضياء . كل هذه الشمس ، وكل هذا الضياء الفرح كان يبدو ، في نظر فاندا ، كانه يهين الموت بجعله الشمعتين دون فائدة ، وهما تفقدان بذلك كل وميضهما . وخطرت لها الفكرة بأن تطفئهما بدافع التوفير . ولكن نظرا لان جمعية دفن الموتى ستطلب بالتأكيد نفس الثمن ، سواء أجرى اشعال شمعتين

او عشر ، فقد قررت بان تقفل النافذة . وغرقت النافذة في الظليل وانبثقت السنة اللهيب بوضوح متألـق . وجلست فاندا على كرسي اعارها اياه بائع التماثيل الدينية ؛ وكانت تحس بارتياح لانها حققت واجبا بنويا ؛ ولا شك ؛ لكن هذا الارتياح كان له ايضا سبب أعمق . وافلتت من صدرها تنهدة ارتياح . وسوت بيديها شعرها الكستنائي . لقد كان يساورها الانطباع بأنها نجحت أخيرا في ترويض « كانكان »، وأنها تمسك به من جديد من عنانه ، هذا العنان الذي انتزعه يوما من قبضة أوتاسيليا القوية ، وسخر منها .

وطاف ظل ابتسامة بشفتي فاندا اللتين كانتا جميلتين وشهيتين لولا ان نوعا من التشدد قد أدى الى تصلبهما . وكانت تحس بأنها قد انتقم لها من كل ما حمله « كانكان » لعائلته من المتاعب ، ولها ، هي وأوتاسيليا بصورة خاصة ، انه اذلال لا نهاية له .

طوال عشر سنوات مارس « جواكيم » هذه الحياة الطائشة ـ «ملك متشردي باهيا» ـ لقد كان موضوعاللمقالات في الزوايا المخصصة للشرطة في الصحف . وكان كتاب ارديا ، متعطشون الى الاخبار الغريبة السهلة ، يصورونه في زواياهم بمثابة نموذج لابناء الشوارع . عشر سنوات قضاها وهو يكسو عائلته بالعار ، ويلطخها بوحول هذه الشهرة المهينة ! « سكير سالفادور الكبير » ، « الفيلسوف المزق الاسمال في منحدر السوق » ، « شيخ الخمارات »، « كانكان العوام » ، « المتشرد بامتياز » ـ تلك كانت الاسماء التي تطلق عليه في الصحف حيث كانت تنشر احيانا صورته القذرة .

يا الله ! ما أكثر ما تتألم البنت في هذا العالم حين يكون الصليب الذي يعده القدر لها هو والد ليس لديه وعي بواجباته !

لكنها تجد الآن نفسها مسرورة ، لدى النظر الى الجثة الموضوعة في نعش فاخر تقريبا ، بالبذلة السوداء مع يدين متصالبتين على الصدر في وضع من الندم التقي . كانت السنة الشموع المتمادية تقوم بتلميع حذائه الجديد . كان كل شيء محتشما ، باستثناء الغرفة ، طبعا . ويا له من عزاء بعد كل هذا الغم والآلام ! وفكرت فاندا بأن أوتاسيليا لا بد لها من أن تحس بالسرور هناك في الاعلى على دائرتها السماوية ذلك لان ارادتها فرضت في النهاية : أفلم ترمم ابنتها المخلصة شخص « جواكيم سواريس داكونها » هذا الزوج وهذا الأب الخجول والطيب بمقدار ما هو مطيع ؛ والذي اصبح عاقلا ومصالحا منذ أن يرتفع صوت أو تتخذ هيئة صارمة ؟ كان هناك ، ويداه متصالبتان على صدره . . ان المتشرد ، « ملك الخمارات » ، و « بطريرك أوساط الدعارة السفلى » قد اختفى الى الابد .

واسوء الحظ انه مات ولم يعد باستطاعته أن يرى نفسه في مرآة لكي يلاحظ انتصار ابنته والعائلة الكريمة التي أهانها .

في هذه اللحظة ، لحظة الارتياح الكبير والانتصار الكامل ، كانت فاندا تريد ان تظهر سخية وطيبة ، وان تنسى السنوات العشر الاخيرة كما لو انها قد غسلها رجال شركة دفن الموتى بواسطة الخرقة المبللة بالماء والصابون ، التي استخدموها لتخليص جسد « كانكان » من أوساخه .

ولم تكن تريد أن تتذكر سوى اعوام طفولتها وحداثتها ، وفترة خطوبتها وزواجها ، والطيف الطيب « لجواكيم سواريس داكونها » ، الفارق الى نصفه في كرسي الاستراحة الطويل ، منصرفا لقراءة جريدته ، والذي يقفز حين كان صوت أوتاسيليا يدعوه بلهجة التأنيب :

ـ كانكان !

على هذا النحو كانت تقدره ، وتحس نحوه بالحنان . هذا الأب هو الذي كانت تحتفظ بذكراه المؤثرة . وما زال يلزم جهد صغير ، وستكون قادرة على التأثر بصورة جدية ، وان تعتبر انها يتيمة مسكينة ، ولا يمكن تعزيتها .

كان الحر يزداد اكثر فأكثر في الغرفة . ونظرا الى ان النافذة كانت مغلقة ، فان النسيم البحري لم يكن يعرف من اين يتسرب . وعلى كل حال ففاندا لم تكن تريد النسيم: فان البحر والمرفأ والنسيم ، والسلالم المرتقية عبر المرتفعات ، وضوضاء الشوارع ، كل هذا كان جزءا من هذه الحياة الرديئة وغير الموزونة التي ولت الآن . ولم يعد يلزم الان ان يوجد هناك سوى فاندا بمفردها تماما مع والدها الميت ، المأسوف عليه « جواكيم سواريس داكونها »، وأعز الذكريات التي استطاع أن يخلفها لها . وكانت تنتزع من اعماق ذاكرتها مشاهد منسية : حين كان ابوها يرافقها الى ساحة للجياد الخشبية ، المقامة على « الزبيرا » بمناسبة عيد « البونفيم » . وربما لم يسبق لها أبدا ان رأته مبتهجا أكثر منه في ذلك اليوم ؛ كان هيكل هذا الرجل المتطي جواد الاطفال يضحك بملء فيه ، وحتى القهقهة ! هو الذي مع ذلك لم يكن يبتسم الا نادرا ! وتذكرت ايضا الاحتفال

الصغير الذي اقامه زملاؤه وأصدقاؤه لدى ترقيته في ادارة الضرائب . كان المنزل مليئا بالمدعوين . وكانت فاندا قد اصبحت فتاة شابة بدأ الشبان في مغازلتها . وفي ذلك اليوم كانت اوتاسيليا التي تتفجر سرورا وسط الجماعة الموجودة في الصالون ، تحت تأثير الخطب ، والبيرة ، وتقديم قلم حبر للموظف الذي تمت ترقيته . وكان يبدو وكأن التحيات توجه اليها بالذات . وكان « جواكيم » يصغي الى الخطب ، ويشد على ايدي ويتلقى قلم الحبر دون أن يبدي حماسة ، وكأنما كل هذا كان يضجره دون أن تكون لديه الجرأة ليقول ذلك .

وتذكرت أيضا موقف والدها حين أعلنت له الزيارة المقبلة لليوناردو الذي قرر أخيرا ان يطلب يدها . وقد هز راسه مغمغما : « يا الشقي البائس ...! » ولم تكن فاندا لترضى بأن ينتقد زوجها المقبل :

ـ شقي بائس ؟ لماذا ؟ انه من اسرة جيدة ، ولديه عمل جيد ، وهو لا يعاشر النساء ، ولا يرتاد الخمارات ...

ـ اجل ، أعرف جيدا .. أعرف جيدا ... انني كنت أفكر في شيء آخر .

كان ذلك مثيراً للفضول : كانت تتذكر القليل جدا من التفاصيل التي تخص والدها . وكان يبدو انه لم يشترك بنشاط في حياة المنزل . وبالعكس ، فقد كان باستطاعتها ان تقضي ساعات وساعات في تذكر اعمال وحركات أوتاسيليا ، وكذلك أقوالها ، والاحداث التي كانت أمها تتدخل فيها . والحق أن « جواكيم » لم يتخذ أهمية في حياتهما الا ابتداء من اليوم الذي تفرس بنظره في فاندا

وأوتاسيليا ، بعد أن وصف ليوناردو بانه « حيوان كبير » :
قبل آن يطلق في وجهيهما دون ان تتوقعا ذلك : « امراتان
شريرتان قذرتان ! » .

ثم ، بأكبر هدوء في العالم ، وكأنما كان يقوم بأبسط
واتفه اعماله ، ذهب دون ان يعود بعد ذلك ابدا .

لكن فاندا لم تكن تريد ان تفكر في هذا ، ومن جديد
عادت الى طفولتها ذلك لانها هناك في النهاية كانت تجد من
جديد ، بأكبر وضوح ، شخص « جواكيم » . وهكذا ، في
سن الخامسة ، وكانت بنتا طويلة الشعر مع تجاعيد ، وذات
دموع سهلة ، أصيبت بحمى شديدة . ولم يغادر « جواكيم »
الغرفة : كان جالسا قرب وسادة المريضة الصغيرة ، يمسك
بيديها ، ويعطيها الادوية . كان ابا طيبا وزوجا طيبا . هذه
الذكرى الاخيرة اثرت بصورة كافية في فاندا بحيث جعلتها
قادرة على سفح بعض الدموع ، كما يليق بابنة طيبة ، لو لم
يكن هناك اشخاص آخرين في السهرة .

وثبتت انظارها الكئيبة على الجثة وعلى حذائها اللامع
حيث كانت تنعكس السنة لهيب الشمعتين ، وبنطاله ذي
الثنيـة التي لا غبار عليها ، وسترته السوداء الحسنة
التضبيط ، وعلى يديه المتصالبتين في تقى على صدره .
والقت نظراتها على الوجه المحلوق جيداً ، وتلقت صدمة . .
كانت هي الصدمة الاولى .

ذلك لانها رأت هناك الابتسامة . الابتسامة الوقحة
وغير الاخلاقية لشخص يتسلى ويلهو . وهذه الابتسامة لم
تتغير ؛ ولم يتمكن اختصاصيو شركة دفن الموتى من ازالتها .

ويجب القول أنها هي أيضا ، فاندا ، قد نسيت بأن تقدم لهم توصياتها وان تطلب اليهم هيئة وجه اكثر تعبيرا ، وافضل تلاؤما مع هدوء الموت . لقد بقيت ابتسامة «كانكان العوام» ، ومع هذه الابتسامة الساخرة واللاهية ، ماذا كانت فائدة الحذاء الجديد ، ـ في حين ان ليوناردو المسكين كان عليه أن يجمع أهله للمرة الثانية ، وما هي فائدة البذلة السوداء ، والقميص الابيض ، واللحية المحلوقة ، والشعر المدهون ، واليدين المضمومتين للصلاة ؟ وفي الواقع ، فان « كانكان » كان يضحك من هذا كله ، بضحكة كانت تتسع وتنتشر ، ولن تلبث ان تدوي في هذا المسكن القذر . كان يضحك بشفتيه وعينيه ، وهما عينان كانتا تلتفتان نحو كومة الملابس القذرة والمرقعة المنسية في زاوية من قبل رجال دفن الموتى . كانت هي ابتسامة « كانكان العوام » .

وفي الصمت الجنائزي ، سمعت فاندا مقاطع من الكلمات تردد بوضوح شاتم : « امرأة شريرة قذرة ! »

والم الخوف بفاندا . وقد أطلقت عيناها ، كعيني أوتاسيليا شررا ووميضا ، لكن وجهها قد شحب .

كانت هي الكلمات التي بصقها في وجهيهما ، حين كانت تجهد مع أوتاسيليا ، في بداية جنونه ، لاعادته الى هدوء المنزل ، والى عاداته القديمة ، والى الاحتشام المفقود. وحتى الآن ، رغم أنه ميت تماما ، فان هذا المدد في نعشه الذي تعلوه شمعتان ، واللابس بذلة جيدة ، كان يرفض الاستسلام ! كان يضحك بفمه وبعينيه ؛ ولا ينبغي أن تدهش لو أخذ في الصفير . وبالاضافة الى اصبعيه الصغيرين ، فان أصبع اليد اليسرى لم يكن مشتبكا بالآخر،

بل كان يشرئب ، فوضويا وشريرا .

ـ يا للمرأة الشريرة القذرة !

هكذا صاح من جديد ؛ ثم راح يصفر في تخابث .

وارتعشت فاندا على كرسيها ، وامرّت يدهـا عـلى وجهها « ترى هل اصبحت مجنونة ؟ » واحست بنقص في الهواء . واصبحت الحرارة لا تطاق ؛ واصيبت بدوار في راسها . وسمع على الدرج لهاث متضايق ؛ كانت الخالـة ماروكاس ، مع حملها من الشحم ، تدخـل الى الغرفـة . ووجدت ابنة اخيها مرتمية على كرسي ، شاحبة ، مرتعشة، ونظرأتها مثبتة على فم الميت .

ـ أراك منهارة تماما ، يا ابنتي ! صحيح انه مع هذه الحرارة في هذه الغرفه الحقيرة ...

ولدى رؤية «كانكان» الشبح الجبار لشقيقته، زاد من ابتسامه ، بهيئة وقحة . وأحست فاندا بالرغبة في سـد أذنيها ، ذلك لانها كانت تعلم بالتجربة كيف كـان يحب أن يصف ماروكاس ؛ ولكن لماذا تضع يديها على أذنيها لكبـح صوت شخص ميت ... وسمعت :

ـ كيس الضراط الضخم !

كانت ماروكاس تستعيد شيئا فشيئا انفاسها . وحتى دون ان تلقى نظرة على الجثـة ، فتحـت النافـذة عـلى مصراعيها .

ـ انظري ! هـل عطروه ؟ انه يفوح برائحـة تديـر الرؤوس .

ومن النافذة المفتوحة دخلت ضوضاء الشارع، متعددة وبهجة ؛ وأطفأ نسيم البحر الشمعتين وجاء ليداعب وجه « كانكان » ؛ وغمره الضوء ، أزرق ووضاء . وترجرج « كانكان » بمتعة في نعشه ، وعلى شفتيه ابتسامة ظافرة .

٧

في تلك الساعة ، كان نبأ الموت الفجائي « لكانكان الموام » ينتشر في شوارع باهيا . ولم يقفل باعة « السوق » حوانيتهم علامة على الحداد ، لكنهم رفعوا على الفور اثمان عقود « البالانفانداس » (١) وقفف القش والتماثيل الصغيرة من الفخار التي كانوا يبيعونها الى السواح ، وكانت هذه طريقة لتحية المرحوم . وعلى مقربة من السوق تشكلت تجمعات صاخبة تشبه الاجتماعات السياسية السريعة ، مع اشخاص يركضون في كل أتجاه ، كان النبأ يطير ، يستقل مصعد « لاسيردا » ، ويركب في حافلات الترام في اتجاه « الكالسادا » ، ويصعد في الاوتوبيس الى « فيرا دي سانتانا » . ان « باولا » ، الزنجية اللطيفة ، انفجرت باكية أمام طبقها من حلوى البتيوكة (٢) في ذلك المساء ، لن يأتي

(١) البلانفانداس : عقود بديعة كثيرا ما ترصع بالتمائم وتلبسها نساء باهيا .

(٢) البتيوكة : مستحضر نشوي لتحضير الحلوى .

« كانكان العوام » ليسايرها ولا للنظر الى ثدييها البارزين وبعرض عليها عروضا غير محتشمة كانت ترغمها على الضحك .

كان رجال مملكة « ايمانجا » (٣) البحارة ذوو الاجسام البرونزية ، على قواربهم للصيد التي طووا أشرعتها ، لا يخفون دهشتهم ولا خيبة املهم . كيف أمكن لكانكان أن يموت في غرفة في « تابواو » ؟ كيف امكن ان ذئب البحار هذا ، يتخلى عن غلافه اللحمي في سريره ؟ افلم يعلن مرارا كثيرة وبصورة قاطعة ، بلهجة ونبرة قادرة على اقناع أكثر الناس تشككا ، بأنه لن يموت ابدا على البر وان القبر الوحيد الملائم لطبيعته البوهيمية كان هو البحر المغمور بضياء القمر ، وفي المياه التي لا نهاية لها ؟

وحين كان يحدث له ان يوجد بمثابة ضيف الشرف في مؤخرة قارب أمام حساء سمك رائع ، في حين كان يتصاعد من قدور الفخار دخان لذيذ ، وكانت قناني التافيا (شراب مسكر) تنتقل من يد الى يد أخرى ، في اللحظة التي كان يبدأ فيها عزف القياثر ، كانت تتصاعد فيه غرائزه البحرية . وحينئذ كان ينهض ، متمايلا تحت تأثير التافيا التي كانت تبث فيه هذا التوازن المترنح لرجال البحر ، وكان ينادي بصفته « بحارا عتيقا » . انه « ذئب مسن » بلا مركب ولا بحر ، وهو منزعج لان يعيش على الارض رغما عنه . والواقع انه قد ولد لاجل البحر ، لكي يرفع القلوع ويمسك

---

(٣) ايمانجا : في الطقوس الدينية الافرو — برازيلية ، هي الـه (اوريكسا) الماء المالح .

بدفة قوارب الصيد ، وللسيطرة على الامواج في ليالي العاصفة . لقد تحطم مصيره ؛ هو الذي كان باستطاعته أن يصبح قبطان سفينة ، ببذلة زرقاء وفي فمه الفليون ! لكن هذا لم يكن يمنعه من ان يكون بحارا عتيقا ، وليس عبثا أن والدته « مادلين » ، حفيدة احد قادة السفن ، هي التي اعطته الحياة . اذن فان قماشته كملاح كانت تعود الى والد جده . وهو رغم أنه لم يمخر ابدا عبر البحر ، فانه لو عهد اليه بهذا القارب ، لكان قادرا على قيادته نحو عرض البحر ؛ وذلك ليس في السواحل القريبة ، حتى « ماراغوجيب » ، أو « كاشويرا » ، بل الى جهة سواحل افريقيا النائية ! كان ذلك في دمه ؛ ولم يكن عليه أن يتعلم شيئا في موضوع الملاحة ، لقد كان يعرف هذا بالولادة والفطرة . واذا كان أحد في هذه الجماعة الممتازة يتجاسر على الشك ، فليعلن نفسه !... وبعد قوله هذا ، كان يرفع الزجاجة ويشرب بحسوات طويلة . وبالنسبة لقادة القوارب ، لم يكن هذا يشكل أي شك ؛ كان ذلك ممكنا تماما . ان الاولاد الذين يركضون على أرصفة الموانيء وعلى السواحل الرملية كانت لديهم المعرفة الفطرية لأشياء البحر. ولا فائدة في السعي لتفسير مثل هذه الأسرار . وحينئذ كان « كانكان العوام » يتلفظ بقسمه الرصين : لقد كرس للبحر شرف ساعته الأخيرة ولحظاته النهائية . انه لا يقبل بأن يدفن في ثقب طوله سبعة أشبار ، آه كلا ! وحين ستدق ساعته ، سيطلب بأن تعطى له حرية البحر ، لاجل تحقيق الأسفار التي لم يستطع القيام بها أثناء حياته ، وعمليات الاجتياز الاكثر جسارة ، والمآثر التي لم يسبق لها مثيل .

كان المعلم « مانويل » . أشجع أصحاب القوارب ؛ والذي لم يعد في عمر التأثرات . كان يهز راسه علامة على الموافقة. والآخرون الذين علمتهم الحياة بأن لا يتشككوا في شيء ؛ كانوا يوافقون هم أيضا ؛ ويحتسون عبة أخرى من خمرة التافيا . وكان يبدأ العزف على القيثار ، وكان يجري التغني في سحر الليالي في البحر وسحر «جانينا»(٤) المميت. وكان « الذئب المسن » يغني أقوى من جميع الآخرين .

اذن كيف حدث أن مات بغتة في غرفة : عند منحدر « التابواو » ؟ كان ذلك شيئا لا يصدق ! وكان أصحاب القوارب يصغون الى النبأ دون أن يصدقوه كثيرا . كان « كانكان العوام » يحب أن يقوم ببعض الالعاب الخفية وهو قد أدهش كثيرا من الناس أكثر من مرة .

ان لاعبي الكشاتبين . و « الدائرة » و « السبعة والنصف » يعرضون ألعابهم الراعشة وينسون أرباحهم ، منذهلين . ألم يكن « كانكان العوام » رئيسهم بلا نزاع ؟ كان ظلام المساء يهبط عليهم ؛ مثل حداد كبير . وفي البارات والحانات . وعند مداخل الخمارات وحوانيت البهارات ، في كل مكان ؛ يشرب فيه الناس التافيا ؛ أخذ الحزن يسود ؛ وسرعان ما ادرك الشاربون سبب هذه الخسارة التي لا يمكن تعويضها ...

ما من احد كان يشرب بصورة أفضل منه وهو في

---

(٤) الجانينا : عروس بحر كانت تجتذب بمفاتنها الصيادين الى تصورها في أعماق البحار والتي لم يكونوا يعودون منها ابدا .

الوقت نفسه ، مع كونه لا يسكر أبداً ، كان يبدي وضوح البصيرة والألمعية بمقدار ما يحتسي من الخمرة . ومع ذلك كان قادرا على أن يحزر نوع ومصدر مختلف أنواع الخمرة، التي كان يعرف جميع فروقاتها الطفيفة في اللون والطعم والرائحة الطيبة . ومنذ كم من الاعوام لم يكن يمس الماء ؟ منذ اليوم الذي بدأوا بتسميته « كانكان العوام » .

ولم تكن تلك واقعة مشهودة ولا قصة مثيرة ، لكن الشيء يستحق بأن يروى ، ذلك لأن لقب « العوام » قد الصق نهائيا باسم « كانكان » ، منذ ذلك اليوم البعيد . وكان قد دخل الى خمارة « لوبيز » ، وهو اسباني لطيف ، وتقع حانته على طرف السوق . وكان « كانكان » ، بصفته زبونا أبديا ، قد ظفر بحق ان يقدم الى نفسه الشراب دون لجوء الى المستخدم . ورأى على الطاولة زجاجة ملأى تماما من التافيا الصافية ، الشفافة ، التي لا غبار عليها . وصب لنفسه كأسا ، وبصق لكي ينظف فمه ، واحتساها دفعة واحدة . بعد ذلك بقليل ، مزقت صرخة غير بشرية الهدوء الصباحي في جميع أنحاء السوق ، وهزت مصعد «لاسيردا» نفسه ، حتى أعمق دعائمه ، كانت تلك زمجرة حيوان أصيب بجرح مميت او رجل جرى اغتياله بغدر :

ـ هذا هو العو . . . و . . . وّ . . . ام !

يا له من اسباني قذر من النوع البائس ! وتراكض الأشخاص من كل ناحية ؛ لا شك في أنه جرى أغتيال شخص ! أما زبائن الخمارة فكانوا ، من جهتهم ، يضحكون مقهقهين . ولم تلبث نادرة « كانكان » أن انتشرت في سوق « بيلو رنبو » ، ومن « لارغو دي ست بورتاس » حتى

« ديك » ، ومن « كالـادا » حتى « أيتابوا » . واصبـح يعرف منذ ذلـك الحين باسم « كانكان العـوام » ، وكانت « كيتيريا » ـ ذات ـ العين ـ الجاحظة ، في لحظات الحنان الكبير ، تنفخ بين اسنانه : « العو . . . و . . . و . . ام ! » .

وكذلك في المنازل القذرة للنسـاء الأرخص اجـرا ، حيث كان المتشردون ، والنشالون ، وصغـار الباعـة ، والبحارة المتسكعون يجدون ملجأ ، واسرة وشيئا من الحب، وفي وقت متأخر من الليل ، بعد سوق الجنس الحـزين ، حين تكون المومسات المتعبات بحاجة الى قليل من العطف ، نشر نبأ موت « كانكان العوام » الحزن المريـر واستدعى مسيل الدموع الأكثر أسى . كانت النسـاء يبكين كأنهن فقدن احـد أقاربهن ، واحسـن فجأة بارتبـاك فـي بؤسهن . وجمعت بعضهن ما ادخرنه من نقود وقـررن أن يشترين للميت اجمل أزهار « باهيـا » . ان « كيتيريـا ذات العين الجاحظة » ، التي ملأت يديه صواحبه في البيوت الحزينة، كان يطلق صيحات تشق الروح وكانت صيحاتـه تتتبـع درجات « ساوميفيل » لتذهـب وتنطفيء فـي ساحـة « بيلورنبو » . لكن المشروب هو وحده الذي كان بوسعه أن يقدم له بعض العزاء ، في حين كان يثير ، بين حسوة خمـر وصيحة بكاء ، ذكرى هذا العشيق الذي لا ينسى ، الشديد العطف والقريب جدا ، وبالغ البهجة والعالم بكل ما هناك !

وجرى التذكير بوقائع ، وتفاصيل ، وأقوال ، مـن شأنها أن تعطي القياس الصحيح « لكانكان » . انه هو الذي عني طوال اكثر من عشرين يوما بطفل « بينيديتا » ، الذي لم يكن يزيد عمره عـن ثلاثـة اشهـر ، حـين دخلت أمـه

المستشفى . طبعا أنه لم يستطع ان يعطي الثدي للولد لارضائه ، لكنه قام بكل الباقي ، فغير لـه فراشه ، وأزال برازه ، واعطاه الرضاعة وقام بتحميمه .

وايضا ، منذ بضعة أيام فقط ، افلم ينطلق هو كالبطل الجسور ، رغم انه سكير عجوز ، لاغاثة كلارا ـ الخادمة ، حين اراد شابان طائشان ، من ابناء المومسات ، ومن عائلة طيبة ، أراداً أن يضرباها أثناء سهرة عربدة في حانة فبقيانا ؟ ويا له من نديم لذيذ حين كان يجري الاجتماع عند الظهر حول طاولة الصالون الكبيرة ...

ومن الذي كان يستطيع ان يروي القصص الاكثر تسلية ، أو أن يعزي بصورة أفضل منه هموم الحب ، تماما مثل اب او شقيق أكبر سنا ؟ وحوالي منتصف الاصيل ، تدحرجت «كيتريا ذات العين الجاحظة» ، من على كرسيها، وجرى نقلها الى سريرهاونامت مع ذكرياتها. وقد قررت كثير من البنات ان لا يصطدن الزبائن وان لا يقبلن اي رجل في تلك الليلة . وقد لبسن الحداد مثل يوم خميس او يوم جمعة مقدسين .

٨

في نهاية السهرة ، حين اضاءت الأنوار في المدينة ، واخذ الرجال يتركون أعمالهم ، كان أصدقاء «كانكان العوام» الأربعة ؛ الاكثر حميمية معه ، وهم « الطائر الجميل » ، و « الزنجي المدهون الشمر » ، و « مارتان العريف » ، و « رشيق الحركة » ينزلون على سلالم « تابواو » ، باتجاه منزل الميت . وقد شربوا حقا بعض الحسوات وسط الانفعال الذي سببه لهم النبأ ، ولكن أذا كانت عيونهم حمراء ، فذلك لانهم ذرفوا الدموع تحت وقع الم لا يوصف كان ايضا يفسر ارتباكهم في الكلام وترددات سيرهم . وكيف يمكن البقاء في صفاء تام حين يموت لك صديق ارتبطت به منذ اعوام كثيرة ، وهو افضل الصحاب ، واكمل متشرد في باهيا ؛ أما بالنسبة للزجاجة التي خبأها « مارتان العريف » تحت قميصه ، فلم يمكن تقديم اي برهان على ذلك .

في ساعة المغيب ، وما يصاحب تقدم الليل من اخيلة، بدا ان الميت قد تعب قليلا . وقد ادركت فاندا ذلك جيدا. وكان يمكن ان يتعب المرء لاقل من ذلك : لقد قضى فترة بعد الظهر في الضحك ، والفمغمة بكلمات فجة ، والقيام بالتكشيرات . وحتى بعد وصول ليوناردو والعم أدواردو حوالي الساعة الخامسة ، لم يتنازل « كانكان » الى الراحة ولو قليلا . كان يشتم ليوناردو صارخا فيه « يا الأحمق الكبير ! » ، وكان يسخر من أدواردو . ولكن حين هبطت ظلال المغيب على المدينة ، ساد « كانكان » القلق كما لو كان ينتظر شيئا تأخر في الحدوث . وكانت فاندا ، لكي تنسى وتوهم نفسها ، تقيم حديثا حاميا مع زوجها ، وعمها وخالتها ، مع اجتناب تثبيت نظراتها على الميت . وكانت بها رغبة للعودة الى منزلها والراحة بعد ان تتناول قرصا للنوم . ولماذا كان « كانكان » يدير عينيه تارة نحو النافذة وطورا نحو الباب ؟

ان النبأ لم يصل الى الاصدقاء الاربعة في نفس الوقت . وكان أول من علم بذلك هو « الطائر الجميل » ، وكان يستخدم مواهبه المتعددة في الدعاية وكسب الزبائن لمخازن « لابيكادو ساباتيرو » . وكان يلبس فراكا قذرا ، ووجهه ملطخ ، ويتمركز عند باب دكان ، ولقاء مكافأة هزيلة، كان يمتدح البضائع الممتازة والاسعار الملائمة ، ويمسك

الزبائن بأقواله الطريفة ، ثم يدعوهم للدخول وهو يجرهم بالقوة تقريبا . وبين حين وآخر ، وحين كان العطش يستولي عليه (انها مهنة لعينة تجفف بلعومك وصدرك !) كان يقفز نحو اقرب خمارة ويشرب قدحا صغيرا لكي يعزز صوته . واثناء احدى هذه الروحات والرجعات بلغه النبأ ، وحشيا مثل لكمة بقبضة اليد في وسط الصدر ، وحبس منه الكلام ، وعاد مرهقا ومثقلا بالعذاب ، ودخل الى الحانوت ، وابلغ البائع السوري بانه يجب ان لا يعتمد عليه لفترة ما بعد الظهر . كان « الطائر الجميل » ما زال شابا ؛ وكانت الأفراح والاتراح تهزه بعمق . ولم يكن باستطاعته ان يتحمل وحده هذه الصدمة الرهيبة . وكان بحاجة الى صحبة اصدقائه الآخرين الحميمين من الجماعة الصغيرة المعتادة .

وتجاه حوض قوارب الصيد ، في سوق السبت الليلية ، في « آغوا دوس مينينوس » ، وفي « سيت بورتاس » ، وفي عروض « الكابويرا » (١) على « طريق الحرية » ، كان يوجد دائما كثير من الناس : من بحارة وتجار صغار في السوق ، ورجال « الباБالاوس » (٢) ، وهواة « الكابويرا » ، واللصوص وقاطعي الطرق ، حيث يقومون بأحاديث طويلة ، ويعيشون مغامرات ، ويلعبون مباريات في ورق اللعب ، او يذهبون للصيد في ضوء القمر او يشتركون في سهرات العربدة في مختلف اماكن المتعة في المنطقة .

(١) الكابويرا : نوع من الرقص البهلواني الذي يؤديه رجلان يحاكيان قتالا دون ان يتلامسا ابدا .

(٢) عراف او متعاطي السحر في بعض العبادات الافرو ــ برازيلية.

وكان لدى « كانكان العوام » هنا العديد من الاصدقاء والمعجبين ، لكنه كان هو وأصحابه الاربعة لا يفترقون . وطوال اعوام ، كانوا يلتقون كل يوم ، ويجدون انفسهم معا في جميع الليالي ، بنقود وبدون نقود ، وشبعانين او منفجرين جوعا ؛ وكانوا يتقاسمون مشروبهم ، ويبقون متحدين في السراء والضراء . والآن فقط ادرك « الطائر الجميل » الى اية درجة كانوا مترابطين . وكان موت « كانكان » يشكل بالنسبة اليه نوعا من البتر . كان ذلك كانما سرقت منه ذراع أو ساق ، وكانما اقتلعت منه عين ، هذه العين القلبية التي كانت تتحدث عنها « سينهورا » ، ام القديس (٣) ، التي كانت تملك الحكمة العليا . وفكر « الطائر الجميل » بأن عليهم ان يتقدموا معا أمام جسد « كانكان » . وذهب يبحث عن « المدهون » الذي كان لا بد ان يكون موجودا في هذه الساعة في ساحة « سيتي بورتاس » آخذا في مساعدة الساعي الشهير لليانصيب السري ، لكي يجمع ما يدفع به ثمن خمرة المساء . كان طول « المدهون » حوالي المترين . وحين كان ينفخ صدره ، كان يظهر وكأنه مبنى ضخم ، لشدة ضخامته وقوته . ولم يكن باستطاعة احد ان يقاومه حين يكون غاضبا . لسوء الحظ فان ذلك كان نادر الحدوث لأن « المدهون » كان ذا طبيعة مرحة مثل ولد طيب .

وعثر عليه فعلا في ساحة « سيتي ـ بورتاس » ، كان مرتميا هناك على بلاط السوق الصغير ، بدموع مدرارة،

---

(٣) ام القديس : كاهنة تترأس احتفالات الكاندونبليه .

في يده زجاجة فرغت ثلاثة أرباعها . وحوله ، كان يتضامن مه في الآلام والخمرة متشردون من كل نوع ، يجيبونه جوقة على نواحه وتنهداته . لقد كان على علم بالنبأ ! هكذا بهم « الطائر الجميل » لدى رؤيته المشهد . وشرب المدهون » حسوة ، وكان يمسح دموعه ويزمجر في يأس :

ـ لقد مات ، أبونا الصغير !

ـ ... أبونا الصغير !

هكذا كان يردد الآخرون وهم ينوحون ويئنون . وكانت الزجاجة المعزية تنتقل من يد الى يد في حين كانت الدموع الكبيرة تتدفق من عيني الزنجي ، ويصبح عذابه أشد ايلاما .

ـ لقد مات ، رجل الخير !

ـ ... رجل الخير !

وبين حين وآخر كانت شخصية جديدة تندمج في الجوقة دون أن تعرف أحيانا حتى ما هي المسألة . وكان « المدهون » يناوله الزجاجة ويطلق صرخة رجل يطعن بالخنجر :

ـ لقد كان طيبا ..

ـ .. كان طيبا !

هكذا كان يردد الآخرون ، باستثناء الشخص غير المطلع الذي كان ينتظر أن يفسر له سبب هذا النواح الحزين وهذا التوزيع المجاني لخمرة التافيا .

ـ تكلم أنت أيضا ، أيها الشقي !

هكذا كان يصيح « المدهون » ، وكان يمد ذراعه

القوية ويهز الوافد الجديد ، وفي نظرته بريق شرير ويكمل قائلا :

ـ ام انك تعتقد بأنه مجرم اثيم فاسق ؟

وكان احدهم يسارع لتقديم الشروح الضرورية قبل ان تتخذ الامور شكلا رديئا .

ـ انه « كانكان العوام » الذي مات .

ـ « كانكان » ؟ لقد كان لطيفا ...

هكذا كان يقول عضو الجوقة الجديد ، وقد ألم به الرعب أكثر من الاقتناع .

ـ زجاجة أخرى !

هذا ما طلبه « المدهون » وسط البكاء والنحيب .

ونهض غلام برشاقة وذهب الى الخمارة المجاورة .

ـ « المدهون » يريد زجاجة أخرى .

كان نبأ موت « كانكان » ، حيثما انتشر ، يزيد من استهلاك التافيا . وكان « الطائر الجميل » يراقب المشهد من بعيد . وكان النبأ قد بلغه ، ولاحظه الزنجي بدوره . وأطلق زمجرة غريزية ، ورفع ذراعه نحو السماء وعاد ليقف على ساقيه .

ـ أيها « الطائر الجميل » ، يا اخي العزيز ، لقد مات أبونا الصغير .

ـ أبونا الصغير ...

رددت الجوقة ...

ـ اقفلوا بوزكم ! يا أقذار ! اتركوني اعانق اخي

« الطائر الجميل » .

وكان يجري احترام لطف شعب باهيا الودود ، وهو افقر ما يكون من الناس واكثرهم تمدنا ؛ وصمتت الأفواه . كانت ذيول ملابس « الطائر الجميل » تخفق في الريح وعلى وجهه الملطخ اخذت الدموع تسيل . وثلاث مرات ، تبادل « المدهون » معه العناق ، مازجين نحيبهما . وقبض « الطائر الجميل » على الزجاجة الجديدة ليشرب منها العزاء .

ولم يكن « المدهون » يتوصل الى العثور عليه ، هذا العزاء .

ـ لقد انطفأ نور الليل .

ـ ... نور الليل ...

واقترح « الطائر الجميل » قائلا :

ـ هيا للبحث عن الآخرين لكي نزوره .

كان « مارتان العريف » يمكن ان يكون في ثلاثة أو أربعة أماكن . فهو اما ان يكون نائما عند « كارميلا » ، وهو ما زال تحت وقع اتعاب الليل ؛ أو انه كان يثرثر على درجات السوق ؛ او انه أيضا كان يلعب بالورق في سوق « اغوا دوس مينينوس » . ومنذ ان ترك مارتان الجيش ، وكان ذلك قبل ١٥ سنة ، كان يكرس وقته فقط لهذه النشاطات الثلاثة : الحب ، والحديث ، والقمار . ولم تعرف له ابدا مهنة اخرى ! وكانت النساء والحمقى يعطونه مقدارا كافيا من المال لكي يعيش . وبالنسبة الى « مارتان العريف » ،

فان العمل ، بعد أن لبس بزة مجيدة ، كان انحطاطا ـ بشكل ظاهر . ان اعتزازه كخلاسي وسيم ورشاقة أصابعه في لعب الورق كانا يجعلان منه شخصية محترمة، دون الحديث عن مهارته الكبرى في العزف على القيثار .

كان في سوق « آغوا دوس مينينوس » آخذا في ممارسة مواهبه في لعب الورق . ونظرا لأنه يمارس ذلك بكل بساطة ، فانه كان يغذي الفرح الروحي لبضعة سواقين الاوتوكارات والشاحنات ، ويعاون في تربية غلامين بدآ تدرجهما العملي في الحياة ، ويساعد أخيرا عددا من الباعة في انفاق الأرباح التي حققت من مبيعات النهار . وكان يقوم بذلك بعمل مشكور جدا . وحينئذ كيف نفسر ان مهارته الكبرى في قيادة اللعبة لم تستثر حماسة أحد الباعة ، الذي كان يغمغم بين أسنانه بأن هذا التوفيق في اللعب كان مرده الى الغش . رفع « مارتان العريف » نحو هذا الناقد الطائش عينيه الزرقاوين المفعمتين بالبراءة ، وعرض عليه ادارة اللعبة اذا كانت هذه هي رغبته واذا كان يملك لأجل هذا الكفاءة الضرورية . اما هو ، « مارتان العريف » ، فكان يفضل أن يلعب مقابل مال المقامرة (الصندوق) لكي يحمل اللعبة على الانفجار بأسرع ما يمكن ، وتكبيد صاحب الصندوق اكثر انواع البؤس سوادا . ومن جهة اخرى ، فانه لم يكن يقبل التلميحات الخبيثة في صدد استقامته . وهو بصفته عسكريا سابقا ، كان حساسا جدا ازاء كل فكرة تعبر عن شكوك حول شرفه . وقد بلغ من شدة حساسيته بحيث ان أستفزازا جديدا كان سيرغمه على تحطيم وجه شخص ما . وارتفعت حماسة الغلمان حتى

ذروتها ، وراح الـــواقون يفركون أيديهم متحمسين . ولا شيء اجمل من شجار جيد ، مجاني وخارج البرنامج . في تلك اللحظة ، في حين كان كل شيء ممكنا ، ظهر « الطائــر الجميل » و « المدهون » ناقلين النبأ الفاجع ، وكذلك زجاجة كان ما زالت فيها بعض قطرات من التافيا في قعرها .

ومن مكان بعيد ، صاحا بالعريف :

ـ لقد مات ! لقد مات !

ثبت « مارتان العريف » عليهما نظرتــه البصــيرة وتفرس بصورة أخص في الزجاجة وهــو يقــوم بحسابات دقيقة . وعلق مخاطبا الأشخاص المحيطين به :

ـ لا بد انه حدث شيء خطير لكي يفرغا زجاجة . أو ان « المدهون » قــد ربــح في اليانصيب ، او ان « الطائــر الجميل » قد وقع في الغرام .

والواقع انه كثيرا ما حدث ان « الطائر الجميل » ، هذا الرومنطيقي الذي لا يشفى ، أن يقع عاشقــا تحت ضربــة عواطف ملتهبة. كان يسقي كل غرام من غرامياته كما ينبغي، في البهجة عند البدء ، ثم في الحزن والرضوخ حين كــان حبه ينتهي ، وذلك لم يكن يتأخر البتة .

ـ هناك شخص ما قد مات .

هكذا قال سائق .

ومد « مارتان العريف » اذنه :

ـ لقد مات ! لقد مات !

كانا يتقدمان وكلاهما مرهق محطم تحت ثقل النبأ . ومن « سيتي ـ بورتاس » حتى « آرغوا دوس مينينوس »،

مرورا بحوض القوارب وبمنزل « كارميلا » ، راحا يعلنان النبأ المحزن لكثير من الناس . ولماذا كان كل شخص لدى معرفته بوفاة « كانكان » ، يسارع لفتح زجاجة ؟ ولم يكن من خطأهما هما ، المنذران بالألم والحداد ، اذا كانا قد التقيا بكل هؤلاء الاشخاص في طريقهما ، واذا كان «لكانكان» كل هؤلاء المعارف والاصدقاء . وعبا بعض الحسوات الصغيرة للتعزي ... وفي ذلك اليوم ، في مدينة باهيا ، اخذ الناس يشربون قبل الموعد المعتاد ، وكان السبب واضحا : فليس في كل يوم يموت شخص مثل « كانكان العوام » .

ان « مارتان العريف » ، الذي نسي مشاجراته ، واوراق اللعب بيديه ، كان يراقبهما مرتبكا أكثر فأكثر . كانا يذرفان الدمع الغزير ، ولم يعد هناك شك ممكن ... ووصله صوت « المدهون » مختنقا :

ــ لقد مات ، ابونا الصغير !

ــ اهو يسوع المسيح أو الحاكم ؟

هكذا سأل احد الغلمان ، الذي احس برغبة في التنكيت . ورفعته يد الزنجي في الجو والقت به على الارض . وفهم الجميع بأن المسألة جدية . ورفع « الطائر الجميل » الزجاجة وصاح :

ــ لقد مات «كانكان العوام » !

وافلتت أوراق اللعب من يد « مارتان » . وراى البائع المتشكك اسوا ظنونه تتأكد : وتناثرت بغزارة أوراق « الآس » و « السيدات » وجميع اوراق مال المقامرة

(الصندوق) . لكن اذنه التقطت اسم « كانكان » واختار بأن لا يناقش . واستولى « مارتان العريف » على زجاجة « الطائر الجميل » وافرغها والقاها بعيدا بازدراء . ونظر مطولا الى السوق ، والى الشاحنات والاوتوبيسات في الشوارع ، والى الزوارق في البحر ، والناس الذين كانوا يروحون ويجيئون ... واحس بغتة بالشعور بفراغ . ولم يعد يسمع تغريد الطيور في اقفاص كوخ قريب . ولم يكن « مارتان العريف » رجلا يسفح الدموع : ان العسكري لا يبكي ابدا ، حتى حين لا يعود لابسا للبزة . لكن عينيه ضاقتا واصبحتا صغيرتين جدا ، وتحول صوته ؛ وفقد كل تبجح . وحين سأل : « كيف امكن ان يحدث هذا ؟ » كان صوته يشبه تقريبا صوت طفل .

وبعد ان جمع أوراقه ، انضم الى الاثنين الآخرين . وبقي عليهم ان يكتشفوا « رشيق الحركة » . ولم يكن بالامكان العثور عليه بصورة موثوقة الا يوم الخميس او الاحد بعد الظهر في « فالديمار » ، على « طريق الحرية »، حيث كان يشترك بصورة دائمة في مبارزات « الكابويرا ». وكان يطارد الجرذان والضفادع لبيعها لمختبرات التجارب الطبية والابحاث العلمية . كان هذا النشاط يجعل من « رشيق الحركة » شخصية تلاقي الاعجاب ، وكان رأيه من اكثر الآراء جدارة بالاحترام . ترى أليس هو ، الذي كان على صلة بالدكاترة والذي كان يعرف اسماء صعبة ، الم يكن هو أيضا والى حد ما ، عالما .

وبعد أن ساروا كثيرا وابتلعوا الكثير من حسوات الخمرة ، انتهى بهم الامر الى العثور عليه ، ملتحفا سترته

الواسعة ، كما لو انه يحس بالبرد ، وآخـذا في الدمدمة وحيداً . وكان النبأ قد وصله بطريق ما ، وهو ايضا قـد راح يبحث عن اصدقائه . ولدى رؤيتهم دس يده في احـد جيوبه « ذلك لكي يخرج منديله ويمسح دموعه » هكذا فكر « الطائر الجميل » . لكن « رشيق الحركة » سحب مـن اعماق جيبه ضفدعة صغيرة خضراء مماثلة لزمردة مصقولة.

ـ لقد احتفظت بها « لكانكان » . . . ولم يـسبـق لي ابداً ان عثرت على ضفدعة تماثلها في الجمال .

٩

حين ظهر الأصحاب الاربعة عند باب الغرفة ، مد « رشيق الحركة » يده ، حيث كانت ترتاح على راحتها المدودة الضفدعة ذات العينين الصفيرتين البارزتين . وبقوا ساكنين على عتبة الباب . وكان « ذو الشعر المدهون » ، وراء الآخرين ، يمد رأسه الضخم لكي يرى . وارتبك « رشيق الحركة » تمام الارتباك واعاد الضفدعة الى جيبه .

وقطعت العائلة حديثها الحار ، وحدقت اربعة أزواج من العيون معادية في هذه الجماعة الغريبة . « انه لم يكن ينقصنا سوى هذا » ، هكذا فكرت فاندا .

ونزع « مارتان العريف » ، الذي لم يكن يفوقه في ميدان التربية سوى « كانكان » وحده ، قبعته عن راسه القذر ، وحيا الاشخاص الحاضرين :

ـ مرحبا ، سيداتي سادتي . لقد جئنا نحن لكي نراه ...

وخطا خطوة الى الامام ، وحذا الآخرون حذوه . وابتعدت العائلة ، فأحاط الاصدقاء بالنعش . ونشأ لدى « الطائر الجميل » انطباع بأن في الامر خطأ ، وان هذا الميت ليس « كانكان العوام » . ولم يتعرف اليه الا من ابتسامته . واصيب اربعتهم بالذهول : انهم لم يكن بوسعهم أبدا أن يتصوروا « كانكان » نظيفا الى هذا الحد ، وانيقا وحسن الثياب . وخلال وقت قليل ، فقدوا ثقتهم بأنفسهم، وتبدد سكرهم كأنما بسحر ساحر . كان حضور العائلة ، ولا سيما النساء ، يجعلهم مرتبكين وخجولين . ولم يكونوا يعرفون ماذا يفعلون ، ولا أين يدسون ايديهم ، ولا اي موقف يتخذونه امام الميت .

والقى « الطائر الجميل » ، المضحك بوجهه الملطخ بالدهان الاحمر ، وفراكه المهترىء ، نظرة نحو الثلاثة الآخرين وكأنما ليقترح عليهم اخلاء الغرفة بأسرع ما يمكن . وكان « مارتان العريف » مترددا ، مثل جنرال عشية معركة، حين اكتشف قوة العدو . ووصل الامر ب « رشيق الحركة» ان خطا خطوة في اتجاه الباب . وحده « مدهون الشعر »، الذي كان ما يزال واقفا وراء الآخرين ، وعنقه ممدود لكي يرى افضل ، لم تخامره لحظة تردد . كان « كانكان » يبتسم له ؛ وابتسم له الزنجي بدوره . وما من قوة بشرية كان باستطاعتها أن تنتزعه من هناك ، من قرب وسادة أبيه الصغير ــ « كانكان » .

وامسك ب « رشيق الحركة » من ذراعه ، وأجاب بنظرة على اقتراح « الطائر الجميل » الصامت . وقد فهم « مارتان العريف » : ان العسكري لا ينبغي له أن يفر من

ساحة القتال . وابتعدوا اربعتهم عن النعش ليتخذوا لهم مكانا في آخر الغرفة .

والآن كان هناك ، في صمت ، من جهة عائلة « جواكيم سواريس داكونها » ، ابنته ، وصهره ، واخوه ، واخته . ومن الجهة الاخرى ، أصدقاء « كانكان العوام » . ودس « رشيق الحركة » يده في جيبه ، وتحسس الضفدعة الخائفة : كان يريد تماما أن يربها « لكانكان » . وكأنما في رقصة باليه ؛ ففي حين كان يبتعد الاصدقاء الاربعة عن النعش ، كان الأهل يتقدمون منه . وأطلقت فاندا نحو أبيها نظرة تأنيب وازدراء . انه حتى بعد موته كان يفضل صحبة هؤلاء المعدمين ، اللابسين ثيابا رثة .

ذلك لانهم هم الذين كان « كانكان » ينتظرهم ، وقلقه في نهاية فترة بعد الظهر لم يكن له سبب سوى تأخر المتشردين . وحين بدأت فاندا الاعتقاد بأن اباها قد هزم ، وأصبح مستعدا في النهاية للاستسلام وأن يبعد عن شفتيه الأقوال البذيئة ، مرغما على القتال في تراجع أمام المقاومة الصامتة والمفعمة بالكرامة التي واجهت بها جميع الاستفزازات ، ها هي الابتسامة الهائلة تضيء مجددا وجه الميت : ان الجثة التي هي أمامها، هي أكثر من أي وقتمضى جثة « كانكان العوام » . ولولا ذكرى أوتاسيليا المهانة ، لتخلت عن المعركة ، تاركة لحي « تابواو » الحقير هذه الجثة غير اللائقة . ولردت هذا النعش الذي لم يستخدم كثيرا لجمعية دفن الموتى ؛ ولباعت الملابس الجديدة بنصف ثمنها لاحد باعة الملابس القديمة . واصبح الصمت لا يطاق .

والتفت ليوناردو نحو زوجته ونحو عمته :

ـ لقد حان الحين لكي تذهبا . لقد تأخر الوقت .

وقبل بضع دقائق ، لم تكن فانـدا تريـد سوى شيء واحد : العودة الى منزلها لكي ترتاح . لكنها لـم تكن امرأة مستعدة للهزيمة . وأجابت وهي تصر على أسنانها :

ـ ما زال أمامنا وقت .

وجلس « ذو الشعر المدهون » على الارض واسند راسه الى الجدار . ودفعه « رشيق الحركة » بقدمه : كان من غير اللائق اتخاذ مثل هذا الوضع امام عائلة الميت . وكان « الطائر الجميل » باستمرار يريد ان يذهب ، والقى « مارتان العريف » نحو الزنجي نظرة تأنيب . ودفع « ذو الشعر المدهون » بيده رجل صديقه المزعجة وانفجر بالبكاء :

ـ لقد كان ابانا الصغير ! ابانا الصغير « كانكان » . . .

. . وكان ذلك يشبه ضربة شديدة على صدر فاندا ، ولطمة على خد ليوناردو وبصقة على وجه ادواردو . والخالة ماروكاس وحدها ، الجالسة على الكرسي الوحيد المرغوب جدا ، انفجرت بالضحك وهي تهز شحمها :

ـ آه كم هو مضحك !

وانتقل « ذو الشعر المدهون » ، وقد سرت اليه عدوى الضحك من ماروكاس ، من البكاء الى الضحك ، لكن انفجار ضحكة الزنجي كان اكثر اخافة من بكائه . وكان ذلك قصف الرعد في الفرفة ، لاحظت فاندا وراءه ضحكة اخرى : انها ضحكة « كانكان » الذي كان يتلهى بصورة مجنونة .

ـ ماذا تعني قلة الاحترام هذه ؟

ان صوتها الجاف دمر هذه الودية الناشئة .

عند هذا التأنيب ، نهضت الخالة ماروكاس وخطت بضع خطوات في الغرفة . وتابع « ذو الشعر المدهون » لفها بنظرة عطوف وكان يتفحصها من القدمين حتى الراس . كانت تروق دائما لذوقه ، انها ذابلة بعض الشيء ولا شك ، لكنها ضخمة وطويلة : وكان يحببهن هكذا . ولم يكن يقدر ابدا أولئك النسوة النحيفات اللواتي ليس بالامكان معانقة قاماتهن . آه ! لو أن « ذا الشعر المدهون » يلتقي بهذه السيدة على البلاج، فأنهما كانا سيقومان معا بأعمال جنونية. وكان يكفي النظر اليها لتبين نوعيتها بسرعة . وبدأت الخالة ماروكاس في اظهار رغبتها في الذهاب . كانت تحس بأنها متعبة وعصبية . ولم تجب فاندا ، التي اخذت مكانها على الكرسي أمام النعش : كانت أشبه بحارس يسهر على كنز .

وأعلن ادواردو قائلا :

ـ نحن جميعا متعبون .

ـ والافضل أن تذهبا . . .

كان ليوناردو يخاف من درجات « تابواو » ، فبعد قليل ، حين تكف حركة التجارة كليا ، فان المومسات والأشقياء سيملأون الشارع .

ان « مارتان العريف » ، الحسن التربية والذي كان يريد تقديم خدمة ، اقترح قائلا :

ـ اذا كان سادتي وسيداتي يريدون الذهاب للراحة ، والنوم قليلا ، فاننا نحن سنهتم به .

كان ادواردو يعرف أن هذا لا يمكن ان يكون : فمن

المستحيل ترك الجسد وحده تماما مع هؤلاء الاشخاص ، دون وجود أحد أعضاء العائلة . لكنه كان يحب تماما ان يقبل الاقتراح ، اجل حقا ! أن قضاء كل يومه في حانوت والسير الى هذه الجهة وتلك لخدمة الزبائن أو لاعطاء أوامر للمستخدمين ، كان يرهق الانسان . وكان ادواردو ينام باكرا وينهض عند شق الضوء ، وكانت مواعيد دوامه دقيقة . ولدى عودته من محل البقالة ، بعد حمامه وغذائه ، كان يجلس في كرسي طويل ، ويمد ساقيه وينام بعد قليل. ان شقيقه اللعين لم يكن يعود عليه الا بالمتاعب . ومنذ عشر سنوات ، لم يكن يفعل شيئا آخر . وفي هذا المساء ايضا ارغمه على البقاء واقفا مع بضع سندويشات هزيلة في معدته . ولماذا لا يتركه في صحبة أصدقائه ، هؤلاء المتشردين الذين عاشرهم منذ زمن طويل ؟ وماذا جاء يفعل، هو ادواردو ، في هذا الكوخ القذر ، في وكر الجرذان هذا ؟ وماذا تفعل ماروكاس وفاندا وليونارد؟ انه لم تكن لديه الشجاعة لاظهار أفكاره . كانت فاندا وقحة وقادرة تماما على أن تذكره بالمناسبات التي لجأ فيها الى صندوق « كانكان » حين كان هو ، أي ادواردو يبدأ عمله التجاري . ونظر الى « مارتان العريف » بنوع من الطيبة والاهتمام .

ان « رشيق الحركة » ، بعد عدة محاولات غير مثمرة لانهاض « مدهون الشعر » ، جلس بدوره . كان يريد أن يضع الضفدعة على راحة يده واللعب معها . انه لم يسبق له ابدا ان رأى ضفدعة بمثل جمالها .

وراح «الطائر الجميل» ، الذي قضى قسما من طفولته في ملجأ للاحداث، بادارة الكهنة، يبحث في ذاكرته المشوشة

عن صلاة كاملة . لقد سمع دائما من يقول بأن الموتى بحاجة الى الصلوات . . . والكهنة . فهل جاء الخوري ؟ أم انه فقط سيأتي غدا ؟ كان هذا السؤال يداعب لسانه ، الى حد أنه لم يتمالك نفسه :

ـ هل جاء الخوري ؟

ـ انه سيأتي غدا صباحا . . .

بهذا اجابت ماروكاس .

واطلقت فاندا نحوها نظرة غاضبة . فلماذا تتحدث مع هذه الحثالة ؟ وبعد أن اعادت الاحترام ، شعرت الآن بأنها افضل . لقد دفعت المتشردين نحو زاوية الغرفة ، وفرضت عليهم الصمت . وعلى كل حال ، فلا هي ولا الخالة ماروكاس بوسعهما قضاء الليل هنا . وقد أملت في لحظة بصورة غامضة بأن أصدقاء « كانكان » غير المحتشمين لن يبقوا ، بما أنه لم يكن يقدم في هذه السهرة لا الطعام ولا الشراب . ولم تكن تعلم ماذا يمكن أن يبقيهم هنا في الغرفة ؛ لم يكن ما يمسكهم هنا صداقتهم للميت : فهؤلاء الاشخاص ليست لديهم صداقة لاحد . ومهما يكن ، فان الحضور المزعج لهؤلاء الاصدقاء المضحكين لم يكن ابدا ذا اهمية ، بشرط أن لا يقرروا مرافقة الدفن في اليوم التالي . ومنذ الصباح ، لدى عودتها لاجل الجنازة ، ستتولى هي فاندا ، قيادة العمليات . وستجد العائلة نفسها وحدها مع الجثة . وسيجري دفن « جواكيم سواريس داكونها » ببساطة وكرامة . ونهضت عن كرسيها ، ونادت ماروكاس :

ـ هيا بنا ! وخاطبت ليوناردو قائلة :

ـ لا تبق هنا الى وقت متأخر ! انك لن تخسر ليلتك ... وقد سبق للعم ادواردو أن قال بأنه سيبقى حتى الصباح .

وأبدى ادواردو، وهو يتملك الكرسي ، ايماءة موافقة. وذهب ليوناردو لمرافقة المراتين الى محطة الترام . وجازف « مارتان العريف » بعبارة : « مساء الخير أيتها السيدات». لكن تحيته ظلت دون جواب . كان ضوء الشمعتين وحده يضيء الغرفة . وكان « ذو الشعر المدهون » ينام بشخير مفزع .

١٠

في الساعة العاشرة مساء ، نهض ليوناردو عن صفيحة النفط ، واقترب من الشمعتين ليرى ساعته . وايقظ ادواردو الذي كان ينام فاغر الفم ، ومنزعجا على كرسيه :

ـ انا ذاهب . وسأعود في الساعة السادسة صباحا لأتيح لك الوقت لتغيير ملابسك في منزلك .

ومد ادواردو ساقيه وفكر في سريره . كان يشعر بألم في عنقه . وفي احدى زوايا الغرفة ، كان « الطائر الجميل » و « رشيق الحركة » و « مارتان العريف » يقومون بصوت منخفض بنقاش حار . من الذي سيحل محل « كانكان » في قلب وسرير « كيتيريا ذات العين الجاحظة »؟ كان « مارتان العريف » يعطي البرهان على أنانية مثيرة ، ولم يكن يقبل بأن يشطب اسمه من قائمة الورثة بحجة انه يملك قلب وجسد كارميلا الرشيقة ، الزنجية الصغيرة . وحين ضاع صدى خطوات ليوناردو في الشارع ، راح ادواردو

يتفرس في المتشردين . وتوقف نقاشهم ، ووجه « مارتان العريف » أبتسامته الى التاجر . وكان هذا ينظر بحسد الى « ذي الشعر المدهون » الذي كان يغط في نوم عميق . وجلس من جديد على الكرسي ووضع قدميه على صفيحة النفط . كان يحس بألم في عنقه . ولم يعد « رشيق الحركة » يتمالك نفسه : سحب الضفدعة من جيبه ووضعها على الارض ، وقامت بقفزة . يا لها من مضحكة ! كانت تشبه ظهورا عجائبيا في وسط الغرفة .

ولم يكن ادواردو يتوصل الى النوم . ونظر الى الميت الساكن في نعشه: كان هو ألوحيد النائم نوما مريحا . وماذا كان يفعل هو نفسه في هذه الحراسة ؟ أفلا يكفي حضور الدفن ، ودفع شطر من النفقات ؟ انه قد فعل واجبه كأخ لشخص من نوع « كانكان » الذي سمم حياته بصورة فاضحة .

نهض ، وحرك ساقيه وذراعيه ، وفتح فمه لكي يتثاءب . كان « رشيق الحركة » يخبيء في يده الضفدعة الصغيرة الخضراء . كان « الطائر الجميل » يفكر في «كيتيريا ذات العين الجاحظة » ، أنها امرأة عظي . . .

ووقف ادواردو امامهم :

ـ قولوا لي أيها الفتيان . . .

واتخذ « مارتان العريف » ، العالم النفسي بدافع الفطرة والضرورة وقفة التأهب :

ـ امرك يا سيدي المقدم !.

من يدري . . . لعل التاجر سيرسلهم لشراء ما يشربونه

لترطيب اجتياز ليل طويل كهذا ...

ــ هل ستبقون طوال الليل ؟

ــ معه ؟ نعم يا سيدي ! لقد كنا صحابا ...

ــ اذن فساذهب الى منزلي لأرتاح قليلا .

ودس يده في جيبه ، وسحب منها ورقة مالية . وكانت عيون « العريف » ، و « الطائر الجميل » و « رشيق الحركة » ترافق كل حركاته .

ــ « هذه النقود لتشتروا بها ساندويشات . ولكن لا تتركوه وحيدا ، حتى ولا دقيقة واحدة . نعم ؟

ــ بوسعكم ان تذهبوا باطمئنان . وسوف نظل في رفقته .

واستيقظ « ذو الشعر المدهون » لدى شمه رائحة التافيا . وقبل أن يبدأ الشراب ، أشعل « الطائر الجميل » و « رشيق الحركة » سيفارة . وتناول « مارتان العريف » سيفارا سعره خمسون‌سانتافوس، وهو أسود وقوي،يعرف قيمته المدخنون الحقيقيون فقط . ومرت نفحات كبيرة من الدخان أمام أنف الزنجي دون أن تنجح في ايقاظه . ولكن ما ان فتحوا الزجاجة (هذه الزجاجة الاولى التي جرى نقاش كبير حولها ، وهي ، حسب اقوال العائلة ، تلك التي كان « العريف » قد ابقاها مخبأة تحت قميصه) فتح الزنجي عينيه وطلب حسوة صغيرة .

لقد ايقظت الحسوات الاولى من الخمر لدى اصحابنا الاربعة ذهنا انتقاديا حادا . ان عائلة « كانكان » هذه ،

المنتفخة بالغرور ، قد ظهرت شحيحة وبخيلة وهي لم تفعل كل شيء الا نصفيا . فأين هي الكراسي ليجلس عليها الزوار ؟ وأين هي المآكل والمشروبات الضرورية ، حتى في سهرات أفقر الناس ؟ لقد حضر « مارتان العريف » العديد من السهرات الجنائزية ؛ وهو لا يذكر سهرة مثل هذه ؛ مجردة من الحيوية . وحتى لدى افقر الفقراء كانت تقدم على الاقل القهوة وحسوات من التافيا . ان « كانكان » لا يستحق بأن يعامل على هذا النحو . ولماذا هذا الافتخار من قبل العائلة اذا كان ذلك لفرض مثل هذا الاذلال على الميت، بعدم تقديم أي شيء لأصدقائه ؟ وذهب « الطائر الجميل » و « رشيق الحركة » للبحث عن مقاعد ومآكل . وكان « مارتان العريف » يرى انه يجب تنظيم السهرة مع الحد الادنى من اللياقة . كان جالسا على الكرسي ، ويعطي الاوامر : « صفائح وقناني ! » وكان « ذو الشعر المدهون »، الجالس على صفيحة النفط ، يومىء براسه موافقا .

وكان ينبغي الاعتراف بأنه ، بالنسبة للجثة في حد ذاتها ، فان العائلة قد تصرفت بصورة جيدة : بذلة جديدة، وحذاء جديد ، وشيء انيق ! وشموع جميلة كما في الكنيسة . لكنهم قد نسوا الازهار . . . وهل سبق أبدا أن شوهدت جثة بلا أزهار ؟

وصاح « ذو الشعر المدهون » :

ــ هذا سيد حقيقي ، ومرحوم جميل !

هذا المديح جعل كانكان يبتسم . واجابه الزنجي بابتسامة أخرى .

ــ هيه أيها الاب الصغير .

هكذا قال « ذو الشعر المدهون » بانفعال وهو يمس ضلوع الميت كما كان يفعل عادة حين كان يسمع كلمة جميلة من كانكان .

وعاد « الطائر الجميل » و « رشيق الحركة » مع صفائح ، وقطعة من السجق وعدة قنان ملأى . وشكلوا نصف دائرة حول الميت ، وحينئذ اقترح « الطائر الجميل » على اصدقائه ان يتلوا معا صلاة « ابانا الذي في السموات» . وبجهد رائع من التذكر ، توصل الى العثور على الصلاة بكاملها تقريبا . واستجابوا لرغبته ، ولكن دون اقتناع . ولم يكن هذا يبدو لهم سهلا ، كان « ذو الشعر المدهون » يعرف بعض الأدعية الموقعة على الطبل موجهة الى « أوكسوم » (١) والى « أوكسالا » (٢) ! ولم تكن ثقافته الدينية تذهب الى أبعد من هذا . ومنذ ثلاثين عاما لم يعد « رشيق الحركة » يتلو الصلوات . وكان « مارتان العريف » يعتبر الصلوات وأشياء الكنيسة بمثابة أفعال ريائية لا تتلاءم مع الحياة العسكرية . ومع ذلك فقد حاولوا التلاوة : كان « الطائر الجميل » يتلو الصلاة والآخرون يقولون الاجوبة حسب استطاعتهم . وفي النهاية ، فان « الطائر الجميل » الذي كان جاثيا على ركبتيه وقد خفض رأسه علامة على الندامة قد غضب :

ـ عصابة من البلهاء !

قال « العريف » : انه نقص في التمرين ... ولكن

---

(١) اوكسوم : اله الماء العذب .

(٢) أوكسالا : اله اكبر وكثيرا ما يتمثل في يسوع المسيح .

يكفي هذا الآن . أن الخوري سيفعل الباقي غدا ... وقد تركت الصلوات « كانكان » بلا مبالاة . ولا بد وأنه يحس بالحر في هذه البذلة السميكة . ونظر « ذو الشعر المدهون » الى صديقه . وكان ينبغي القيام بشيء من اجله بما ان الصلاة لم تعط شيئا . ربما يجب انشاء صلاة كوندونبليه ؟ كان ينبغي فعل شيء. وقال «لرشيق الحركة»:

ــ اين وضعت ضفدعتك ؟ اعطها له ...

ــ ولكن بماذا ستفيده ؟

ــ ربما سرته .

امسك « رشيق الحركة » الضفدعة بلطف ، ووضعها على يدي « كانكان » المتصالبتين . وقفز الحيوان الصغير وانكمش في زاوية النعش . وحين كان ضياء الشموع المتراقص يضرب جسم الميت ، كانت تسري في هذا الجسم ومضات خضراء . وعاد « مارتان العريف » و « الطائر الجميل » الى نقاشهما بصدد « كيتيريا ذات العين الجاحظة» وكانت حسوات الخمرة تجعل « الطائر الجميل » أكثر عدوانية ، وكانا يرفعان صوتهما للدفاع عن مصالح « كانكان » . وقد دعاهما « ذو الشعر المدهون » الى النظام .

ــ الا تخجلان من التنازع على زوجته أمام عينيه ؟ ان جثته ما زالت ساخنة ! انكم أسوا من البغاث المهاجمة لجثة قذرة !

ــ انه هو وحده الذي يستطيع ان يقرر ... هكذا اضاف « رشيق الحركة » . لقد كان يأمل بأن يختاره

« كانكان » كوريث لماله الوحيد ، « كيتيريا » أفلم يحضر له ضفدعة خضراء ، وهي أجمل ضفدعة اصطادها ؟

ـ « هم » . هكذا قال المرحوم .

ـ أرأيت ؟ انه لا يحب هذا الحديث .

هكذا صاح الزنجي غاضبا .

ـ سوف نشربه حسوة صغيرة هو أيضا .

هكذا اقترح « العريف » راغبا في كسب رضى المرحوم . وفتحوا فمه وأسالوا فيه التافيا . وسال قليل من الخمر على قبة السترة وعلى مقدم القميص .

ـ لم يسبق لاحد ابدا ان رأى شخصا يشرب وهو نائم !

ـ الافضل ان نجلسه . وهكذا يستطيع ان يرانا كما ينبغي .

واجلسوا « كانكان » في نعشه : كان يحرك راسه بلطف ، وقد وسعت الحسوة الصغيرة من التافيا ابتسامته .

وصاح « مارتان العريف » وهو يتفحص القماشة : ان لديه سترة جميلة ! ومن البلاهة الباس مرحوم بذلة جديدة . لقد مات ، وانتهى ، وسوف يذهب تحت الارض . . . بذلة جديدة ليأكلها الدود ، حين نرى الجميع هنا بحاجة اليها . . .

وفكر الآخرون : انها اقوال مفعمة بالحقيقة . واشربوا « كانكان » حسوة ايضا : وهز الميت راسه . كان باستطاعته

اعطاء الحق لمن يستحقه ووافـق بصوت ظاهـر على آراء مارتان .

ـ انه يقوم باتلاف بذلته .

ـ الافضل نزع سترته لكي لا يوسخها .

وحين نزعوا سترته السوداء الثقيلة جدا والساخنة جدا ، بدا ان كانكان قد ارتاح . ولكن نظرا لانه أستمر في بصق التافيا ، فقد نزعوا قميصه أيضا . وكـان « الطائـر الجميل » ، الذي كان حذاؤه بحالة مزرية ، يداعب بعينيه الناعمتين حذاء المرحوم ، اللامع جدا : « ان الميت ليس بحاجة الى حذاء جديد ، أليس هكذا يا « كانكان » ؟

ـ هذا هو رايي بالضبط .

وجمع « ذو الشعر المدهون » فـي زاويـة الغرفـة ملابس صديقه العتيقة . والبسوه اياها وحينئذ تعرفـوا اليـــه .

ـ الآن نعم ! انه بالضبط « كانكان » هذا المسن .

واحسوا بالبهجة ، و « كانكان » هو نفسه بدا اكثـر سرورا الآن وقد تخلص من الملابس التي تضايقه . وكـان ممتنا بصورة خاصة من « الطائر الجميل » ذلك لان الحذاء كان يضغط على اصابع رجلي « كانكان » . واستغل البائـع الدوار هذه الاستعدادات الطيبة ليلصق فمه على أذن كانكان ويوشوشه شيئا في صدد كيتيريا . ولماذا كان يلح ؟ كـان « ذو الشعر المدهون » على حق تماما : كانت هذه القصص في صدد الصبية تضايق « كانكان » . وغضـب وبصـق مقدارا من التافيا في عين « الطائر الجميـل » وارتعـش

الآخرون وقد الم بهم الفزع .

ـ انه غاضب .

ـ لقد قلت لكم ذلك بوضوح !

وانتهى الامر بـ « رشيق الحركة » الى لبس السروال الجديد . وقد لبس « مارتان المريف » السترة . وفكر « ذو الشعر المدهون » في انه يستطيع ان يقايض بالقميص مقابل زجاجة من التافيا في حانة يعرفها . وابدى أسفه لانه لم يكن هناك كلسون ...

واوضح كانكان : انهم بخلاء شحيحون ...

ـ بما انك انت تقول هذا ، فهو صحيح ! نحن لم نكن نريد توسيخهم ، لانهم ، بعد كل شيء ، أهلك . ولكن يا للبخل ! يا الشح ! المشروب على حسابنا ! هل راى احد زهرة على ميت كهذه ؟!

وفكر « ذو الشعر المدهون » : ـ حتى ولا زهرة . انني افضل ان لا يكون لي اهل من هذا النوع الرديء .

ـ الرجال بهائم والنساء شريرات . هكذا اوضح « كانكان » ، بلهجة قاطعة .

ـ هيا ايها الصغير ، ان البدينة لا تساوي شيئا بالمرة ... ان لها خصائل شعر مغرية .

ـ أنها كيس ضخم للضراط !

ـ لا تقل هذا ، ايها الأب الصغير !

انها خائرة القوى بعض الشيء ، هذا صحيح ، ولكن ليس هناك ما يدعو لازدرائها الى هذا الحد ! لقد رأيت

جيداً ما هو اسوأ !

ـ ايها الزنجي الأحمق . انك لا تعرف مـا هي المرأة الجميـلة !

وصاح « رشيق الحركة » الذي لم يكن يعـرف معنى اللياقة : ـ ان كيتريا هي شيء آخر . اليس كذلـك ايهـا العجوز الصغير ؟ ما الذي ستفعله كيتريا الآن ، أنا ، فـي الحقيقـة ...

ـ اقفل فمك ، ايها البائس .. الا ترى انـه يغضب ؟ لكن « كانكان » لم يكن يصغي اليه ؛ وبصق التافيا عـلى « مارتان العريف » الذي حاول أن يأخذ منـه حصته مـن جولة الشراب ، وكاد يقلب الزجاجة بضربة رأس .

وطلب « ذو الشعر المدهون » قائلا :

ـ اعط الأب الصغير حصته من المشروب .

واوضح « العريف » : أنه يضيع حصته ويبصقها .

ـ انه يشرب كما يريد . وهذا حقه !

ووضع « مارتان العريف » عنـق الزجاجـة في فـم « كانكان » المفتوح : ـ هدوءاً ، ايها الرفيق ! مـا اردت ان اسيء اليك . اشرب قدر ما تشاء ! هـذا الاحتفـال هـو لـك ...

وتخلوا عن النقاش في صدد « كيتريا » و « كانكان » لم يكن يسمح بمفاتحته في هذا الموضوع .

وصاح « الطائر الجميل » باعجاب : هذا شيء جميل!
ـ انه شخص مهم ... هكذا صحح « كانكان » وهـو الخبيـر .

ـ لقد دفـع لـه ...

وقفزت الضفدعة على صدر كانكان . كان ينظر اليهـا مندهشا ولم يلبث ان دسها في جيب سترته القذرة .

وارتفع القمر فوق المدينة والمياه .. ان قمر « باهيا »، قد دخل من الشباك ، ناثرا فضته . ومعـه دخل هـواء البحر الذي اطفأ الشموع : ولم يعد النعش يـرى . وكـان لحن من القياثر يرتفع على طول سلالم الســوق ، وكـان صوت امرأة يتغنى بعذابات الحب . وأخذ «مارتان العريف» للجميع بتردده :

ــ انه يعبد سماع اغنية ...

كانوا يغنون اربعتهم ؛ وكـان صـوت « ذي الشعـر المدهون » يتلاشى عبر سلالم السوق ، نحو حوض قوارب الصيد . كانوا يشربون ويغنون . ولم يكن « كانكان » يفوّت اية جرعة ولا اي لحن ... كان يحب الاغاني .

وحين تعبوا من الغناء ، سأل « الطائر الجميل » :

ــ الم يكن حسـاء السمك صنع المعلم مانويـل لهـذا المساء ؟

ــ كان لهذا اليوم بالضبط ! انـه حسـاء بسمـك الشفنين .

هكذا اوضح « رشيق الحركة » .

واكد « العريف » قائـلا :

ــ لا احد يصنع حساء السمك اجـود ممن تصنعـه ماريا كلارا . وطرقع كانكان بلسـانه . وانفجر « ذو الشعـر

المدهون » ضاحكا :

ــ انه يحب حساء السمك كثيرا !

ــ ولماذا لا نذهب ؟ اذا لم نذهب ، فان المعلم مانويل يمكن تماما أن يستاء ...

ونظر بعضهم الى بعض . لقد تأخروا بعض الشيء . وكذلك فعليهم ان يذهبوا لاحضار النساء . وافضى الطائر الجميع بتردده :

ــ لقد وعدنا بأننا لن نتركه وحده !

ــ ولماذا نتركه وحيدا ؟ انه سيأتي معنا . وصاح « ذو الشعر المدهون » :

ــ أنا جائع .
واستشاروا كانكان .
ــ هل بوسعك ان تأتي ؟
ــ ترى هل انا عاجز مثلا ؟

ولاحظ « ذو الشعر المدهون » قائلا : « انه سكران الى درجة انه لا يستطيع الوقوف ؛ ومع تقدمه في السن، لم يعد يستطيع أن يتحمل التافيا ... هيا بنا أيها الأب الصغير ! » .

وافتتح « الطائر الجميل » و « رشيق الحركة » المسيرة . وكان كانكان ، المسرور من الحياة ، يتقدم بخطوة راقصة بين « ذي الشعر المدهون » و « مارتان العريف » الذي اعطاه ساعده .

١١

ظاهر ان هذهالليلة ستكون مشهودة لا تنسى . وكان « كانكان الموام » في أحد أفضل ايامه . وقد استولت على اصحابنا حماسة غير معتادة : كانوا يحسون بأنهم سادة هذه الليلة العجيبة حيث كان القمر البدر يحيط مدينة باهيا بوشاح من الاسرار . وعلى منحدر « بيلو رنبو » كانت أزواج من العشاق تختفي تحت البوابات الدهرية ، وقطط تموء على السطوح وقيثار تئن بالحان السيرنادا . كانت تلك ليلة مسحورة ! وكان قرع طبول الطقوس يدوي في البعيد؛ وكان حي « بيلو رنبو » يشبه ديكورا عجائبيا .

وكان « كانكان الموام » ، وهو في ذروة بهجته ، يحاول أن يفركش « العريف » والزنجي ، ويمد لسانه للمارة ؛ وأدخل رأسه في باب ليتفرس بخبث في زوج من العشاق ؛ وعند كل خطوة ، كان يظهر رغبته في الارتماء في الشارع . وكف الاصدقاء الخمسة عن العجلة : كان يبدو

انهم السادة المطلقون للزمن ، وكأنهم يعيشون خارج تقويم الأيام ، وان ليلة باهيا هذه السحرية ستدوم اسبوعا على الاقل . والواقع ان « ذا الشعر المدهون » كان على حق بالقول بأن احتفالا بعيد ميلاد « كانكان العوام » لم يكن يمكن أن يحتفل به في مهلة بضع ساعات قصيرة . ولم ينكر « كانكان » بأن هذا اليوم هو عيد ميلاده رغم أن الآخرين لا يذكرون أنهم احتفلوا به في الأعوام السابقة . وما كانوا يحتفلون به هو غراميات « الطائر الجميل » ، واعياد ميلاد ماريا كلارا ، وكيتيريا ، وحتى مرة بمناسبة الاكتشاف العلمي الذي حققه أحد زبائن « رشيق الحركة» . ففي بهجة نجاحه ، ترك العالم بين اصابع « معاونه المتواضع » ورقة مالية من فئة الخمسماية . وكانت هذه أول مرة يحتفلون فيها بعيد ميلاد « كانكان » ، لذلك فيجب القيام بذلك حسب الأصول. كانوا يسيرون في طريق منحدر « بيلو رنبو » الذاهب الى منزل كيتيريا .

شيء غريب : كانت الضوضاء المعتادة للحانات والبيوت العمومية في « ساو ميغيل » قد تبددت . وفي تلك الليلة ، كان كل شيء مختلفا . فهل أن الشرطة قد قامت بغارة غير منتظرة واقفلت المباغي والبارات ؟ وهل ان رجال الشرطة قد قبضوا على كيتيريا ، وكارميلا ، ودولاريس ، وارنستينا ، ومارغاريدا الضخمة ؟ وهل سيسقطون هم ايضا تحت ضربة شبكة ؟ واضطلع «مارتان العريف » بقيادة العمليات وتقدم « الطائر الجميل » للاستطلاع .

وقال لهما « العريف » : سوف تذهبان للاستكشاف.

وبالانتظار ، جلس الآخرون على درجات كنيسة الساحة . كانت هنالك زجاجة يجب انهاؤها . ورقد « كانكان » : كان ينظر الى السماء ويبتسم لضوء القمر .
وعاد « الطائر الجميل » مصحوبا بجماعة صاخبة تطلق صيحات الـ « مرحى » و « يعيش » . وعلى رأسها كان يظهر بوضوح الشبح المهيب « لكيتيريا ذات العين الجاحظة »، المرتدية السواد ، وعلى رأسها الخمار ، انها ارملة لا تتعزى تسندها امرأتان .

وكانت تصيح وقد ألم بها الوجد :

ـ أين هو ؟ ، اين هو ؟

وعجل « الطائر الجميل » في خطوه وصعد درجات السلم .

وكان بفراكه المهترىء يشبه خطيبا في اجتماع سياسي ، آخذا في الايضاح :

ـ لقد سرت اشاعة بأن « العوام » قد جمدت عينه ومات ولبس الجميع ملابس الحداد . وقهقه « كانكان » واصدقاؤه ضاحكين . « وهو ، انه هنا معنا ، أيها الاصدقاء! انه عيد ميلاده ، ونحن نقوم بالاحتفال . ان حساء السمك ينتظرنا في قارب المعلم مانويل » .

وافلتت كيتيريا ـ ذات العين الجاحظة من السواعد المتضامنة لدوراليس ومارغو البدينة لمحاولة الارتماء نحو « كانكان » الذي أصبح الآن جالسا الى جانب « ذي الشعر المدهون » على درجة من باحة الكنيسة . لكن كيتيريا ولا شك تحت تأثير الانفعال في هذه اللحظة السامية ، فقدت

التوازن ووقعت على قفاها . وسرعان ما أنهضها الاصدقاء وساعدوها على الاقتراب .

ـ لص ! كلب ! بائس ! ماذا حدث لك لاطلاق الاشاعة بأنك مت ، واشاعة الرعب في قلوبنا ؟!

وجلست الى جانب « كانكان » وامسكت بيده التي وضعتها على نهدها الضخم لجعله يحس بدقات قلبها الحزين المنكوب .

ـ هذا النبأ كاد يقتلني ، وفي هذه الاثناء كنت تقوم بالسكر والعربدة ، ايها النذل ! انك مستحيل يا عوعو ، بتفننك الشيطاني ! انك عديم الوعي ، يا عوعو ؛ وانت لا تدرك يا عوعو ؛ لقد كدت تتسبب بموتي !

كانت الجماعة تعلق على المسألة بقهقهات ضاحكة ؛ وفي الخمارات عادت الضوضاء وانبعثت الحياة على طول منحدر « ساوميفيل » . واستأنفوا سيرهم باتجاه بيت كيتيريا . وكانت كيتيريا ، من جهتها جميلة هكذا بملابسها السوداء : ولم يسبق ابدا ان كانت شهية كما هي الآن .

وفي حين كانوا يسيرون على منحدر « ساو ميفيل » ، ويتوجهون نحو البيت العمومي ، كانوا موضوع تظاهرات مختلفة . ففي حانة « فلور دي ساو ميفيل » قدم لهم الالماني هانسن جولة من خمرة التافيا . وفي مكان أبعد قليلا ، وزع الفرنسي فيرجيه على النساء علب كبريت افريقية . ولم يكن باستطاعته أن يبقى معهم لانه كان عليه ان يشترك في احتفال ديني في تلك الليلة . وانفتحت ابواب المواخير من جديد ، عادت النساء للظهور في النوافذ وعلى

الارصفة . وعلى مرورهم ، كانت النساء ينادين « كانكان » مطلقات صرخات ، وكانوا يهتفون باسمه . وكان يشكرهن بايماءة من راسه كأنه ملك عائد الى مملكته . وفي منزل كيتيريا كان كل شيء في حداد وحزن . وفي غرفتها ، على الصيوان ، الى جانب صورة « سيدنا ـ من ـ بونفيم » ، والتمثال الصغير من الفخار « لكابوكل لانتيسك » ، حاميها الخارق ، كانت تبرز صورة « لكانكان » مقتطعة من جريدة (من سلسلة تحقيقات صحفية « لجيوفاني غيمارايس) حول « أعماق باهيا وحثالاتها البشرية » بين شمعتين مضاءتين ووردة حمراء في أسفلها . وكانت رفيقتها دوراليس قد فتحت زجاجة وملأت اكوابا زرقاء . واطفأت كيتيريا الشمعتين ، وتمدد « كانكان » على السرير وذهب الآخرون الى غرفة الطعام .

ولم تلبث كيتيريا أن انضمت اليهم :

ـ لقد نام ، المسكين ...

ـ انه محشو ، أيتها الام الصغيرة ... هكذا أوضح « رشيق الحركة » .

ونصح « ذو الشعر المدهون » قائلا :

ـ دعيه ينام قليلا . انه اليوم مزعج ومستحيل ، لكن هذا حقه ! لقد تأخروا بالنسبة لحساء السمك عند المعلم مانويل وكان ينبغي ايقاظ « كانكان » . وسوف ترافقهم كيتيريا ، وكارميلا الزنجية ومارغاريدا البدينة . ولم تقبل دوراليس الدعوة ، ذلك لان الدكتور كارمينو قد ارسل لها بأنه سيمر لزيارتها اثناء الليل . أن الدكتور كارمينو كان

يدفع لها شهريا ؛ كان هذا ضمانة ! ولم تكن تستطيع السماح لنفسها بمضايقته ...

وهبطوا على المنحدر بمشية اصبحت الآن أكثر سرعة. وكان « كانكان » يركض تقريبا ، ويتعثر على الحصى جاذبا معه كيتيريا و « ذا الشعر المدهون » الذي أمسكه من وسطه . وكانوا ما زالوا يأملون الوصول في وقت مبكر ليجدوا المركب راسيا في الحوض . ومع ذلك ، وفي منتصف الطريق توقفوا عند حانة « كازوزا » وهو صديق قديم . وكانت هذه الحانة سيئة السمعة : ولم تكن تمر ليلة دون شجار فيها . وكانت عصابة من مدخني الحشيش ترتادها كل يوم . لكن « كازوزا » كان لطيفا : وكان يعطيهم بعض الكؤوس قرضا ، بل وحتى زجاجة أحيانا . ونظرا لأنهم لم يكن بوسعهم الوصول الى المركب وايديهم فارغة ، فقد قرروا الذهاب لمفاوضة « كازوزا » للحصول على ثلاثة ليترات من التافيا . وفي حين كان « مارتان العريف »، وهو دبلوماسي لا يقاوم ، يوشوش عند الصندوق مع صاحب المحل المندهش لرؤية « كانكان العوام » في افضل حالاته ، جلس الآخرون لفتح شهيتهم على حساب المحل على شرف ذلك الذي يحتفلون بعيد ميلاده ، وكانت الحانة ملأى : وفيها شبان صموتون ، وبحارة مبتهجون ، ونساء مهترئات حتى العظم ، وسواقو شاحنات كان عليهم ان يسافروا في تلك الليلة نحو « فيرا ـ دو ـ سانتا » وكان الشجار مفاجئا ومثيرا . وقد اثبت تقريبا أن « كانكان » كان المسؤول الحقيقي عن نشوبه . لقد جلس ، وراسه مستند الى نهدي كيتيريا ، والساقان ممدودتان . ويبدو أن احد الشبان كاد

يقع متعثراً لدى مروره على ساقي « كانكان » ، فشتمه بفظاظة . ولم يقبل « ذو الشعر المدهون » حركات مدخن الحشيش . ففي تلك الليلة ، كان « كانكان » يتمتع بجميع الحقوق ؛ بما فيها الحق بأن يمد ساقيه كما يشاء ؛ وقد اعلن ذلك . ونظرا لأن الشاب لم يرد ، فلم يكن لهذا الحادث نتائج مؤسفة . وبعد ذلك ببضع دقائق ، اراد مدخن آخر للحشيش ان يمر . فرجا « كانكان » بأن يطوي ساقيه . واعاره « كانكان » أذنا صماء . حينئذ دفعه الشاب بعنف شاتما اياه بجميع الشتائم . ونطحه « كانكان » بضربة من راسه وبدات المشاجرة . وامسك « ذو الشعر المدهون » حسب عادته الشاب والقاه من فوق الطاولة المجاورة . واندفع المدخنون الآخرون وهم في ذروة الغضب ، الى المعركة. ومنذ ذلك الحين ، لم يعد يمكن رواية الحادثة . . . فقط كانت ترى كيتريا الجميلة واقفة على كرسي وتلوح في ساعدها بزجاجة . وتولى « مارتان العريف » القيادة .

وحين انتهت المشاجرة بانتصار كامل لأصدقاء « كانكان » الذين انضم اليهم السواقون ، كان « رشيق الحركة » قد اصيب في عينيه ، وتمزق جانب من قراك « الطائر الجميل » ، وهو ضرر خطير ! اما « كانكان » فكان ممددا على الارض . لقد تلقى ضربات شديدة بقبضات الايدي واصطدم راسه باحدى بلاطات الرصيف . واركن مدخنو الحشيش الى الفرار . وكانت كيتريا المنحنية على « كانكان » ، تحاول انعاشه . وكان « كازوزا » يتأمل بصورة فلسفية باره المقلوب راسا على عقب ، والطاولات المقلوبة ، والكؤوس المحطمة نثارا . وكان معتادا على ذلك . ان نبأ

المشاجرة سيزيد رصيد وزبائن المحل . وعلى كل حال ، فان منظر مشاجرة جميلة كان يروق له .

واتجهوا نحو ارصفة المرفا .

لم يكن المعلم مانويل ينتظرهم في مثل هذه الساعة . ان مأدبة حساء السمك التي جرى الاحتفال بها دون الخروج من المرفأ كانت الآن تلامس نهايتها ؛ ونظرا لأنه لم يكن يوجد سوى بحارة حول القدر الفخارية الضخمة ، فلم يكن ثمة من جدوى للذهاب الى عرض البحر ...

وفي الاساس لم يصدق المعلم مانويل أبدا موت « كانكان » ، لذلك فانه لم يدهش مطلقا حين رآه يصل متابطا ذراع كيتيريا . ان « كانكان » « ذئب البحر المسن » ما كان يمكن أن يموت على الارض ، في سرير مبتذل .

ــ ما زال هنا سمك كاف للجميع .

ورفعت قلوع المركب ورفع الحجر الكبير الذي كان يستخدم كمرساة . وكان القمر قد جعل من البحر طريقا فضية ؛ وفي الخلفية ، كانت تبرز على جبلها مدينة باهيا السوداء . وابتعد المركب ببطء . وارتفع صوت ماريا كلارا ... وكانت اغنية بحار :

« وجدتك في أعماق البحر .

وقامتك مغطاة

بالأصداف ... » .

وقد اتخذوا جلستهم حول القدر الضخمة المدخنة . وكانت صحون الفخار تمتليء . وكان السمك قد تبل جيدا ، في حساء بالفلفل وزيت النخيل . وكانوا يتداولون زجاجة

التافيا . ولم يكن « مارتان العريف » يفقد أبدا رؤية اهدافه ، وكان يحتفظ باستمرار بوعي واضح للضرورات الحاضرة . وهو لدى قيادته المعركة ، قد نجح في انتشال بضع زجاجات وخبأها تحت ثياب النساء . وكان « كانكان» وكيتيريا هما وحدهما لا يأكلان : كانا راقدين في مؤخرة المركب ويصغيان الى غناء ماريا كلارا وكانت الجميلة ذات العين الجاحظة توشوش ذنب البحر المسن بكلمات الحب .

ــ لماذا أحدث لي كل هذا الخوف ، يا عوعو البائس ؟ انت تعرف جيدا أن قلبي ضعيف ، وان الطبيب قد أوصاني بعدم الحزن والقلق . يا لها من فكرة خطرت لك ! وكيف يمكنني ان أعيش بدونك ، ايها المخلوق الجهنمي ! لقد اعتدت عليك ، وعلى الحماقات التي ترويها لي ، وعلى تجربتك كشخص مسن ، وعلى ميلك الى الطيبة . ولماذا فعلت لي هذا ، اليوم ؟ وكانت تمسك بالراس ، الذي جرح في المشاجرة ، لتضع قبلات على عينيه المتخابثتين .

لم يكن « كانكان » يجيب ! كان يتنشق هواء البحر ! وكانت أحدى يديه تمس الماء وتترك اثرا على الأمواج . وفي بدء المأدبة كان كل شيء على ما يرام ... ان صوت ماريا كلارا ، وجودة حساء السمك ، والنسيم الذي كان يصبح ريحا ، والقمر في السماء ، ووشوشات كيتيريا ، كل هذا كان جميلا وساحرا .. ولكن ها هي الغيوم تبرز من الجنوب بغتة وتبتلع القمر البدر . وبدات النجوم تنطفيء! واصبحت الريح باردة وخطرة . وحذر المعلم مانويل أصدقاءه :

ستكون ليلة عاصفة ؛ والأفضل ان نعود .

كان ينوي أعادة المركب نحو ارصفة المرفاقبل ان تندلع

العاصفة . لكن التافيا كانت لذيذة ، والحديث ممتعا ، وكان ما زال سمك كثير في القدر ، يعوم على زيت النخيل الأصفر ؛ وكان صوت ماريا كلارا يملأ النفوس متعة ، ويولد رغبة بالبقاء على المياه . ومن جهة اخرى ، هل كان يمكن قطع غراميات كانكان وكيتيريا في ليلة العيد هذه ؟

وهكذا فان العاصفة ، والريح المولولة والأمواج المنتصبة قد فاجأتهم في عرض البحر . وكانت انوار « باهيا » تلمع في البعيد ؛ وشق وميض البرق الظلام ؛ وبدا المطر يهطل . وكان المعلم مانويل يمسك الدفة ، والغليون في فمه .

ولم يستطع أحد أن يقول كيف نجح « كانكان » في النهوض على ساقيه والاستناد الى الشراع الصغير . ولم يكن باستطاعة كيتيريا أن تفصل نظراتها الشغوفة عن شبح « ذئب البحر المسن » ، المبتسم امام الأمواج التي كانت تكنس المركب ، في مواجهة البرق الذي كان يضيء الظلمات . كان الرجال والنساء يتشبثون بالحبال ، ويتعلقون بجوانب المركب . كانت الريح تهب والمركب الصغير يهدد بالغرق في كل لحظة . وصمت صوت ماريا كلارا : كانت الآن أمام الدفة ، الى جانب رجلها .

كانت كميات من امواج البحر تكنس متن المركب ؛ وكانت الريح تحاول ان تمزق الأشرعة . وكان يصمد فقط ضوء غليون المعلم مانويل ، وشبح « كانكان » الواقف كذئب بحر مسن لا يبالي ، وقفة مهيبة امام هجمات العاصفة . وكان المركب يتقدم ببطء وصعوبة من المياه الاكثر هدوء .

وبعد بضع لحظات ، سوف يستأنف العيد ، ولكن في

هذه اللحظة ، تعاقبت خمس ومضات للبرق في السماء . وقصف الرعد بقرقعته كيوم الحشر ورفعت موجة عاتية المركب ، واطلق الرجال والنساء الصيحات وقالت مارغو البدينة متوسلة :

ـ « احميني يا سيدة الرحمة ! »

وسط ضوضاء البحر الغاضب ، وعلى ضوء البرق ، شوهد كانكان ينطلق خارج المركب المنهار وسمعت كلمات وداعه :

ـ فليهتم كل شخص بدفن نفسه ... ولا شي مستحيل .

كان المركب يدخل الى المياه الهادئة ، لكن كانكان بقي في العاصفة ، يكسوه كفن من الموج والزبد ، حسب ارادته.

١٢

لم يكن يمكن فعل شيء ، فان وكالة دفن الموتى لم ترد أن تستعيد النعش ، حتى بنصف ثمن . اذن فقد توجب دفع كل شيء ، لكن فاندا استعملت الشموع التي بقيت . والنعش موجود اليوم في حانوت ادواردو الذي لم يفقد الأمل باعادة بيعه بثمن الاكازيون لمرحوم ما . أما الاقوال الاخيرة ، فتقدم بشأنها روايات مختلفة . ولكن من الذي كان باستطاعته أن يسمعها بصورة صحيحة وسط مثل هذه العاصفة ! وحسب قول شاعر جوال في السوق ، جرت الأمور على هذا النحو :

وسط الاضطراب الكبير
سمع كانكان يصيح :
« سأذهب الى الأرض كما أريد
وفي الساعة التي أختارها »

ح .

ونعشكم ، احتفظوا به
لمناسبة افضل .
وان أرضى بأن ادس
في ثقب محفور في الأرض »
وسيجهل الناس الى الابد
بقية كلماته الثائرة .

طبع على مطابع الامل

تشرين الثاني ١٩٧٩

هذا الكتاب

ذات يوم يخرج جواكيم سواريس داكونها، عن كونه ذلك الموظف النموذجي الحائز على احترام الجميع كما كان دائما ، فيهجر زوجته وابنته ، ويتركهن في بؤسهن البرجوازي ، ليتحول الى واحد من السكيرين الذين يحظون بمحبة بؤساء مرغا باهيا ورواد حوانيتها .

لقب بكانكان العوام لكرهه الماء .

نبذته عائلته وتجاهلته ، الى ان جاء اليوم الذي علمت فيه بوفاته ، وعزمت على القيام بمراسيم جنازته على نحو يليق بمكانته .

غير ان مسالة السهر على جثته في الكوخ الذي وجد فيه كانت من المسائل المهمة .

واخذ صهره على عاتقه شراء ثياب الجنازة : تعتقد ابنته انها لمحت ابتسامة على شفتيه .

تخيل اصدقاؤه المخلصون وهم سكارى انه لا يزال على قيد الحياة ، فأخذوا يطوفون به المدينة ومن ثم نقلوه على متن قارب صيد وهكذا يكون قد مات موتة حقيقية واقيمت له جنازة لائقة .

انها اسطورة واقعية ، لائقة بمارك توين في أهم اعماله ، اسطورة حياة حقيقية ومليئة بالسخرية والخيال وبحب بالغ للناس .

وهذه الرواية هي تحفة صغيرةنموذجية من نتاج عبقرية جورج امادو .

والبروفيسور روجيه باستيد يساعدنا على معرفة افضل بتطور جورج امادو ، مرتل شعب باهيا ، الذي ترجمت اعماله الى اثنتين وثلاثين لغة والمشهور في العالم اجمع .